2262
.072
.338
1952

2262.072.338.1952
Abazah
Ghurub al-Andalus

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073829747

٦٧٥٩

عزيز اباظه

Abāẓah, ʿAzīz

Ghurūb al-Andalus

غروب الأندلس

2262
.072
.338
.1952

المطبعة العمومية بدمشق

الشيخ ..

أيتها الأمة العربية الأبية أهدي هذه الرجمة. فلقد
كان من مودتنا للفقيد أن أوفي من كتابته، إلا قدرة عليه
منك. وطالما أشدت به لغزارة علمه الجديد أنه شرفه أصدقاؤه. ولا يعنف
الجديد أن تتوصل الدوح. ولقد كان أغلب ظني أنك له إحتراما
أنه نشر على الناس ممتلئة أنامهم. أو متداولة بينهم. وكتبي قرأت
وفقده الله. وكان أثر الله قدرة مقدورا. وفي هذه الرجمة أيتها الأمة
الفاضلة. لمن يريد علم الدول كيف تتداعى أواسيها. ومن الشعوب كيف تتوارث
من هنايا الأيام مجاليها. ولعل العظة بالأعقاب أنصع بالشاهد من البعظ
بالنصيحة. فإنه شاهد هذه العظة سنن ماضية تتوقعها البشر. فهي أذن فيه.
فمثل تتعلمه أعلى بأحدثها. وغيبة وقفت العمر أطالع الغيب من أبوابه.
كان الله يتم أيتها الأمة. وتمته لها شأن أن تجتمع كلمتهم. وأن تقوم على رشدهم
الصدق والاخلاص وعدتهم. ويومئذ شاهد لها نفس على أرضها وطاعتها. وتتوثق له
كموثقة أسس مصالحها. وفقنا الله جميعا إلى السبيل التي هي أهدى وهي الغاية
التي هي أنفع وأجدى.

(ج)

2-5-63 1948

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير عميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

ليت شعري كيف كان تأثرُ النظّارة بهذه القصة حين عرض الممثلون عليهم أحداثها المؤتلفة المختلفة ، ومناظرها المتقاربة المتباعدة ، وعواطفها المتظاهرة المتنافرة .

في القصة هذا كلّه ، فيها السياسةُ والحب ، وفيها الاخلاصُ والكيد ، وفيها النصح والمكر ، وفيها مع هذا كله خطوب جسام يذكرها المسلمون فيأسون لها ، ويذكرها الناس على اختلاف أديانهم وظروفهم وعلى تبيان طباعهم وأمزجتهم فيعتبرون بها ، ويجدون فيها موعظة للجاهل وتنبيهاً للغافل ، فتذكره لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولكني مع الأسف الشديد لم أحضر تمثيلها ، ولم أشهد تأثر الناس بها ، وردَّ قلوبهم وعقولهم عليها . وأحسبني لو شهدتُ التمثيل وسمعت التصفيق ، ورأيت الاعجاب والرضى ، لما استطعت أن أتبين مصادر هذا التصفيق والاعجاب والرضى . أهي هذه الاحداث الجسام التي عُرضت على الناس ، أم هي هذه العواطف الثائرة التي مسَّت قلوبهم ، أم هي هذه الأمثال السائرة التي اتصلت بعقولهم ، أم هو شيء آخر غير هذا كله ، هذا اللفظ الجذل والأسلوب السهل الرصين والموسيقى الخالبة الرائعة التي تسحر الأسماع وتملأ الأذواق روعة وجمالا .

وما أريد أن أخفي على صديقي الأستاذ عزيز أباظة ، أني لست من المكلفين بالقصص التمثيلية التي تعرض على الناس شعراً في هذه الأيام ، وشعراً عربياً بنوع خاص . فقد شبَّ التمثيل عن طوق الشعر وتمرد على أوزانه وقوافيه ،

وآثر حرية النثر وطلاقته وأسماحه على قيود الشعر وتحرجه وصرامته منذ زمن غير قصير ، وأصبحت القصص الشعرية في اللغات الأوروبية نادرة أشد الندرة لايكاد الناس يُقبلون عليها إن وجدت فان فعلوا لم يتصل إقبالهم عليها إلا ريثما ينصرفون عنها إلى الحرية الحرة والطلاقة الطلقة ، في هذا التمثيل المنثور الذي لايكلفهم إلا أيسر الجهد وأقل العناء .

وقد صحب التمثيلُ في أثناء طفولته وحين بلغ شبابه الشعرَ ، لأنه لم يكن يستطيع أن يتخفف من الغناء ، ولأن النثر لم يكن قد استكمل قوته بعد . فلما تخفف التمثيل من الغناء ومرن النثر واستطاع أن يتصرف في جميع فنون القول انصرف إليه أصحاب التمثيل وتركوا الشعر لفنونه الخاصة .

فاذا كانت آيات التمثيل في العصر القديم وفي أول العصر الحديث شعراً كلها ، فان القرن التاسع عشر قد شهد مزاحمة النثر للشعر على التمثيل حتى استأثر به ، وكاد يصرف الشعر عنه صرفاً .

فاذا أضفت إلى ذلك أن أدبنا العربي لم يعرف التمثيل شعراً ولا نثراً إلا بآخره ، عذرتني فيما ترى من تحفظي أمام التمثيل العربي الذي يعرض على الناس شعراً عربياً ، لأني أرى فيه غرابة لاتكاد تلائم المألوف من أذواقنا الحديثة ، ولهذا لم أفتن قط بتمثيليات شوقي تلك التي عرضت على الناس منذ مايقرب من ربع قرن !

ولم أنشط لتمثيليات خليفته الأستاذ عزيز أباظة حين أخذ يعرضها على الناس منذ سنتين ، كنت أرى هذا كله رجوعاً إلى فن قديم بعُد به العهد فأسرف في البعد ، وأقبل الناس على أشياء طريفة وهم بها أشدُّ كلفاً ولها أعظم نشاطاً . وقد سألت الناس عن هذه القصة الأخيرة « غروب الأندلس » حين مثلت وكثر عنها الحديث ، وكان الجواب المقنع الذي صادف هوى من نفسي أيَّ هوى ، هو الذى سمعته ذات ليلة من أستاذ جليل له مكانته الممتازة في الثقافة ودقة الذوق ، وحين سألته عن هذه القصة بعد أن شهدها فقال : « شعر جذل رصين لم نعد نسمع مثله منذ وقت بعيد » .

ثم قرأت القصة مرة ومرة ، وما أشك في أني سأقرأها مرات أخرى ، لأني أجد في قراءتها مثل ما وجد هذا الأستاذ الجليل من جذالة الشعر ورصانته ، ومن عذوبته وحسن ملاءمته لما أحب من الفن الممتاز الرفيع . ولكن لا أكذب الصديق الكريم عزيز أباظة ، فلم أعد قراءة القصة وما أرى أني سأعيد قراءتها من أجل أحداثها ومشاهدها التمثيلية .

وليس لي بالطبع أن أنقد القصة من هذه الناحية فقد لا يكون من حق أن أدخل فيما لا أحسن من صناعة التمثيل . ولكن الشيء الذي لا أشك فيه ، وما أحسب أحداً يشك فيه ، هو أن الأستاذ عزيز أباظة قد أطرفنا بشعر رائع ترتاح إليه نفوسنا ، وتجد فيه أذواقنا ما كانت تشتاق إليه ثم لا تظفر به إلا أن ترجع إلى دواوين النابهين من شعرائنا الفحول .

وفي القصة خصلة خليقة أن تحببها إلى كل قارىء تعده ثقافته لاساغة مثل هذا الفن الجميل.

فهي تصور أحداثاً وقعت منذ قرون ، أخص ما يوصف به العصر الذي وقعت فيه أن طبيعة القرون الوسطى كانت أشد استئثاراً به من طبيعة العصر الحديث الذي لم تكن شمسه قد أشرقت بعد .

فهذه الأحداث قد وقعت في غرناطة حين كان ملك المسلمين فيها قد آذن بالأفول ، أي في أواخر القرن الخامس عشر ، ووقعت أطراف منها قليلة في القاهرة حين كان استقلال المصريين يوشك أن يزول أي قبيل أن يغزوها الترك العثمانيون . فبين أحداثها وبيننا أكثر من أربعة قرون تغير في أثنائها كل شيء . تغيرت في أثنائها الحياة المادية كلها ونشأ عن ذلك تغير حياتنا المعنوية كلها أيضاً ، وتغير العقول والقلوب والأذواق والأمزجة ، ولكن القصة على رغم ذلك أو قل من أجل ذلك ، تخدعنا عن أنفسنا وعن كل ما يحيط بنا من الظروف ، وتوشك أن تلقي في روعنا أنها إنما تصور لنا حياتنا التي نحياها والأحداث التي تقع بين أظهرنا .

وما أكثر ما نسأل أنفسنا ، أيتحدث الشاعر عن خطوب تتابعت في مدينة من مدن الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ، أم يتحدث عن خطوب تتابعت في منتصف القرن العشرين بمدينة القاهرة .

فذلك القصر الذى امتلأ فساداً ، والذي أقبل صاحبه على اللهو في غير تحفظ ولا احتياط ، والذي أحاطت به الكوارث من جميع أقطاره وجاءته النذر يتبع بعضها بعضاً ، فلم يحفل بها ولم يؤبه لها ولم يعظه نصح ناصح ، ولم ينفعه تحذير محذر ، وإنما مضى في لهوه لا يلوي على شيء مبغضاً للناصحين ، منكراً للمحذرين ، باطشاً بالمشفقين ، مستهيناً بكل خلق ، مزدرياً لكل عاطفة ، لا يسمع إلا هوى نفسه ، ولا يتبع إلا شهواته الجامحة ، يرى الناصح له عدواً ، والرؤوف به خائناً له ، والشفيق عليه مغرياً به الخطوب . وهذه الحاشية التي تزين الشر وتغري بالاثم وتحرص على النكر ، وتبغى وتطغى وتتخذ الكيد وسيلتها إلى البغى والطغيان ، وهذا الشعب الذي فسد قادته واختلف سادته واتخذ وسيلة لاغاية ، ونُظر إليه على أنه رقيق لاحر ، وهذا العدو الطامع المخادع ، وكل هذه الأسباب التي تقطعت بينه وبين السلامة والعافية ، واتصلت بينه وبين الفتن والمحن والاحن ، كل أولئك صُور في القصة أروع تصوير وأبرعه وأنفذه إلى القلوب ، وأبلغه فيها أثراً ، وهو في ظاهر الأمر وفي حقيقته يقع في غرناطة عاصمة مابقي للمسلمين من الأندلس ، ولكنه في ظاهر الأمر وفي حقيقته أيضاً يقع كله أو أكثره في مدينة القاهرة .

نرى أحداثه ونسمع أخباره ، ونتصلى حره ، ونبلو مره ، لولا أن الله عز وجل قد جعل لنا منه مخرجاً ، وأردي أهل غرناطة بشر ما كسبت أيديهم.

فهذه القصة ، وقد كدت أقول هذه القصيدة ، لاتمتاز بما يمتاز به الشعر الأصيل من تصوير العواطف الانسانية العامة التي يحبها الانسان على اختلاف العصر والبيئة والظروف فحسب ، فالحب والبغض والمكر والغدر والقوة والضعف والاستعلاء والاستخذاء والحيلة والدهاء ، والسذاجة والغفلة ، كل هذه الخصال وما تثير في النفس الانسانية من العواطف مصورة أجمل تصوير

وأصدقه وأشمله ، مؤداة أحسن أداء وأروعه وأقواه ، ولكن الأحداث والوقائع نفسها ليست مقصورة على أهل غرناطة ، وعسى أن تكون أشبه بالأحداث والوقائع التي شهدها المصريون في هذه الأيام القريبة لولا الخاتمة ، فانها تردنا إلى غرناطة رداً عنيفا صريحاً لالبس فيه . وأكاد أعتقد ، وما أظن الشاعر يخطئني فيما أعتقد ، أنه لم ينس نفسه ولا وطنه ولا مواطنيه أثناء إنشائه لهذه القصة . ولعله ذكر مصر والمصريين وما وقع لهم في هذه الأعوام الأخيرة أكثر مما ذكر غرناطة وأهلها وما جرى عليهم من الأحداث .

ولو مضى الشاعر في نسيان غرناطة وأهلها أكثر قليلا مما مضى ، لسمّى أشخاصاً مصريين ، ولصرح عن أحداث مصرية ، وخطوب عربية معاصرة ، وعدّد مكايد من الانجليز وبني اسرائيل ، ثم لم يجد بعد ذلك مشقة أي مشقة في أن يمضي القصة كما أراد ضميره أن تمضي ، ولكنه شق على نفسه ، وعنف بخياله وخواطره ، ورد قلمه إلى غرناطة بين حين وحين ، رداً فيه شيء من قسوة لأنه كان يأبى أن يكتب إلا في مصر والمصريين .

وقد قلت إني لم أشهد القصة حين مثلت ، ولم أشهد رد الناس عليها واستجابتهم لها حين رأوا مناظرها وسمعوا شعرها ولكن أكاد أقطع بأنهم تصوروا أشخاصاً مصريين وألقوا عليهم أسماء مصرية ، ولونوا الأحداث في ضمائرهم بألوان يعرفونها حق المعرفة لأنهم رأوها رأي العين ، ثم أسبغوا عليها من شعر شاعرنا ماراقهم وأعجبهم ، وكله والحمد لله يعجب ويروق .

أيرضى عن هذا النحو من النقد أصحاب التمثيل أم يسخطون عليه !؟

أيرضى عنه الشاعر أم ينكره ! لاأدري ، ولكنني أنا أعتقد أني قرأت قصة مصرية الموضوع ، مصرية الأحداث ، مصرية التصوير والأداء ، قد أتيح للشاعر فيها التوفيق كل التوفيق . ولم ينقصه إلا أن يسمي الأحداث بأسمائها ويصرح عن الأشخاص بحقائقهم ولا يتخذ غرناطة وأهلها رمزاً لما أراد أن يصور أو يقول .

كذلك فهمت القصة وكذلك ذقتها ، وكذلك رضيت عنها كل الرضى ولا عليَّ أن أكون قد فهمت منها مالم يفهم الناس ، ومالم يرد الشاعر إليه ، فأخص مايمتاز به الفن الرفيع والشعر الغنائي البديع هو أنه يؤدي عن صاحبه مايريد ، ويؤدي عن قرائه كذلك وسامعيه مايريدون هم ، وإن لم يخطر للشاعر على بال .

فليقبل الأستاذ عزيز أباظة مني أصدق التحية وأخلص التهنئة بهذه القصة المصرية الأندلسية ، وليهيء نفسه ليطرفنا بقصة أخرى تقع أحداثها في الهند أو في السند أو في الصين ، فليس عليه ولا علينا من ذلك بأس ، ما دام يقول فنسمع ونرضى ، ونجد الغبطة والمتعة والاعجاب .

طه حسين

أشخاص المسرحية

الرجال

السلطان علي أبو الحسن ——— مثله الأستاذ جورج أبيض

(الغالب بالله)

ملك غرناطة . في السبعين من عمره كان عادلاً حازماً . ثم انتابه ضعف الأزواج المسنين تجاه زوجته الجديدة . « ثريا الرومية » فساء حكمه . وخرج الأمر من يديه وتخاذل .

محمد بن سعد « الزغل » ——— مثله الأستاذ منسى فهمى

شقيق السلطان أبي الحسن . في الخمسين من عمره . نازع السلطان في أوائل حكمه ، ثم اتفقا . رجل قوي في وطنيته وإقدامه . لكنه شغل بولاية العهد . وطمع في الملك بعد أخيه ، وكان يرى ذلك في صالحه وصالح الدولة معاً .

موسى بن أبي الغسان ——— مثله الأستاذ أحمد علام

بطل الأندلس في تلك الحقبة وتشارف سنه الخمسين . وطني ثائر تتمثل فيه مع « عائشة » والأمير العطار ومحمد بن سراج روح مقاومة الغاصب . والاستماتة في الدفاع عن الدولة المنهارة .

الأمير علي العطار ——— مثله الأستاذ محمد الطوخي

قائد جيش غرناطة . في الستين من عمره . رجل صلب في الحق أمين . خرج على صهره الملك أبي عبد الله حين تخاذل وخضع لأعداء بلاده .

محمد بن سراج ——— **مثله الأستاذ فاخر فاخر**

في الثلاثين من عمره . فرع أسرة كبيرة قوية بغرناطة . وطني ثائر . يحب « بثينة » متبناة عائشة . متفق مع موسى في نزعته الوطنيـــة وخطته التي لاهوادة فيها .

أبو عبد الله ——— **مثله الأستاذ كمال حسين**

ابن السلطان أبي الحسن من عائشة الحرة في الثلاثين من عمره . دفعه حرصه على عرشه وتخوفه من منافسه عمه الزغل إلى الاستكانة للافرنج والنزول على كثير من آرائهم . وبين يديه دالت دولة العرب بالأندلس .

الأمير يحيى ——— **مثله الأستاذ عمر الحريري**

ابن السلطان ابي الحسن من ثريا الروميـــة . عقدت له ولاية العهد وهو أصغر سناً من أخيه فكان ذلك وغيره سبباً في ميل الشعب عن أبيه والتفافه حول عائشة .

الوزير أبو القاسم عبد الملك ——— **مثله الأستاذ فؤاد شفيق**

في الستين من عمره . رجل متشبث بالوزارة . ويحافظ عليها بمسايرة الظروف ويخضع للأمر الواقع . إما مقتنعاً أو مؤثراً للعافية .

حامد بن سراج ——— **مثله الأستاذ عبد المجيد شكري**

والي وادي آش ومناصر لعائشة ورهطها

صالح بن رضوان ———
محمد بن زائدة ——— من أنصار موسى بن أبي الغسان .

كاتب حامد بن سراج ———

عامر بن نصر ——— من اعوان الوالي حامد بن سراج

همام الاشبيلي ———

امين القصر بغرناطة ———

قاضي قضاة غرناطة ——— مثله الأستاذ شفيق نور الدين

يشايع الوزير أبا القاسم . ويدور في مداره . ويرى أن جهاد الغاصب اذا كان غير مثمر فلا ضرورة له .

فرديناند ——— مثله الاستاذ سعيد خليل

ملك قشتاله وأراجون . تشارف سنه الأربعين . من بناة الدول الدهاة . ومن ذوي العزم والبصر .

فرديناند ——— مثله الاستاذ علي رشدي

ملك نابلي . يقاوم اعتـــداء الفرنج على العرب . حرصاً على صوالح بلاده .

الحبر كارلو ——— مثله الأستاذ حسين رياض

وزير فرديناند ملك قشتاله وأراجون . سياسي داهية وإليـــه يرجع الأمر في نجاح خطط الفرنج في طرد العرب . نهائياً من الأندلس وهو في حدود الخمسين من عمره .

لورنزو ———

لويجي ——— كاهنان من أتباع الحبر كارلو .

كابرا ——— مثله الأستاذ أحمد مهدي أباظة

من قواد جيش الفرنج .

الرسول ——— مثله الأستاذ محمد أباظه

مبعوث الثريا إلى إيزابلا . وهو واحد من ألوف ولدوا من أب عربي وأم فرنجية ، فهان اهتمامهم ببلادهم ومصيرها .

قهرمان القصر بقسنطينة

السلطان الأشرف قايتباي ——— مثله الأستاذ عبد العزيز خليل

سلطان مصر . في الستين من عمره . شغله خلافه مع بايزيد الثاني سلطان تركيا عن أن يعاون العرب في نكبتهم بالأندلس . او هكذا قال ...

الأمير أزبك ——— مثله الاستاذ لطفي الحكيم

قائد جيش مصر .

قنصوه الغوري ——— مثله الأستاذ حسن البارودي

وزير مصر . واعتلى عرشها بعد ذلك .

مفتي مصر

★ ★ ★

السيدات

الأميرة عائشة بنت عبد الله الأيسر ——— مثلتها الآنسة أمينة رزق

زوجة السلطان أبي الحسن . وأم ولده أبي عبد الله وسنها في حدود الخامسة والأربعين . وتمثل فيها جهاد العرب في الأندلس في موقفهم الحاسم الأخير . مديرة ملك . وقائدة ثورة . وراسمة سياسة . ومؤلبة دول .

الثريا ——— **مثلتها السيدة نجمة ابراهيم**

وهي المعروفة في التاريخ « بثريا الرومية » زوجة السلطان أبي الحسن الثانية . وأصلها أسباني . عملت على عقد ولاية العهد لابنها الأمير يحيى . وحين ضعف الأمر تعاونت مع الأسبان .

بثينة ——— **مثلتها الآنسة فردوس حسن**

في الخامسة والعشرين من عمرها . وهي فرع من الاسرة الحاكمة بغرناطة ومتبناة عائشة . تحب محمد بن سراج . ويحبها الأمير يحيى . ضحت في سبيل بلادها لانقاذ قوام الدولة بأغلى ما تحرص عليه الحرائر .

ايزابيلا ——— **مثلتها السيدة احسان شريف**

ملكة قشتاله وأراجون . في الخامسة والثلاثين من عمرها . سيدة من بناة الممالك . وقادة الامم . متعصبة لدينها حتى أطلق عليها المؤرخون اسم إيزابلا الكاثوليكية .

وجد ——— **مثلتها السيدة سامية رشدي** } جاريتان بقصر غرناطة
أمل ——— **مثلتها الآنسة عفاف شاكر** } وتميلان للثريا .

اخرج المسرحية

وطبق إعدادها على المستندات التاريخية

الأستاذ

فتوح نشاطي

الفصل الأول

القسم الأول

غرناطة . قصر الحمراء . قاعة السفراء وهي أفخم قاعات القصر . نوافذها الفسيحة تطل على فناء الأسود فتكشف عن النافورة الكبرى التي تتوسطه .

المشهد الأول

« تدخل بثينة ويلوح كأنها على موعد » :

بثينة : أرى الأرزاء مُسرعةً خُطاها ونحن إزاءها نمشي الهُوَيْنا
إذا لم نَسْبِقِ الأحداثَ وثْباً تَصَلَّيْنا لظاها فاكتَوَيْنا
أعانَ اللهُ مولاتي ، وأضفى رعايته ورحمته علينا

« يدخل محمد بن سراج فتخف بثينة لاستقباله » .

ابن سراج : بثْينَ !!

بثينة : أجئتَ فخرَ بني سراجٍ ؟

ابن سراج : سلمتِ ، ولا فقدتُك يا بُثينا
حلفتُ لئن غفتْ عنك العوادي لقد هانت رزيئتُها لدينا
فدتْك النفسُ !!

بثينة : أين أخوكَ موسى ؟

[وهي تغير الحديث]

ابن سراج : لقد حملتني وصباً وأينا
أرى النُّعمى مُوَطَّأةَ المجاني ولكنْ كيفَ أبلغُها ، وأينا ؟

لو أن العمرَ أمهلنا صَبَرنا ... وعشنا بالتململِ فاشتفَيْنا

بثينة : أجبْني قد سألتُك : أين موسى ؟

ابن سراج : وأنت وقد سألتُك لم تُجيبي

ألم تتبيَّني كَبِدي وجَهْدي ... وما ألقاهُ فيكِ من اللُّغوبِ

أدالَ هواكِ من جَلَدي وحزمي ... ونحن نُعدُّ لليوم العصيب

بثينة : رجعتَ لما نهيتُك عنه ...

ابن سراج : أنَّى ... يَطِبُّ النَّهْيُ أعلاقَ القلوبِ ! (١)

بثينة : نهيْتُكَ جِدَّ مُكْرَهةٍ فدعْني ... لسُهْدٍ واصبٍ ، وأسًى مُذيبِ

وعهْدٍ قد وقفْتُ عليكَ قُدْسٍ ... مصونٍ في شهودِكَ والمَغيبِ

هَويتُكَ يا محمدُ ملءَ نفسي ... وحسْبي أنت من إلْفٍ حبيبِ

ورِفْهٍ إن تفشَّتني همومٌ ... فآدَتْني . دعوتُك من قريبِ

وحسبي أنتَ من كَهْفٍ يَقيني ... إذا ما هانَ من واقٍ نصيبي

ولكنْ قد نَذِرْتَ بأنَّ حُبِّي ... يَنصُّ إليكَ أعناقَ الخطوبِ (٢)

سيُحصيه المليكُ عليكَ جُرماً ... وكم أحصى لقومِكَ من ذنوبِ

ابن سراج : وما تلك الخطوبُ ؟

بثينة : عُداءُ مَلْك ... يُوارى الضعفَ بالبَطْشِ العَضوبِ

لقد أغرتْهُ زوجتُه الثُّريَّا ... بكم ، فهتاجَ كالنِّمرِ الوَثوبِ

صددتُ عن ابنها فتجهَّمتني ... فلم أحفِلْ بها فمضت تشي بي

---

(١) يطب : يداوي . أعلاق القلوب : ما يعلق بها من حب وصبابة ونحوهما .

(٢) نذر بالشيء : علمه واستعد له . نص أعناق الخطوب : استحثها ودفعها بسرعة

وكنتم عونَ ضرّتها فبتنا ... معاً هدفاً لخنجرها المصيب

ابن سراج : أساخرةٌ بخالصتي وعهدي ... وهازئةٌ بآمالي العذاب

[في عتاب حار]

وإلاّ فالذي تُلقين لَغْوٌ ... يُثيرُ فضولَ شكّي وارتيابي

إذا الصدّ انتويتِ فكاشفيني ... ولا تُدلي بأعذار نوابِ

بثينة : غضبتَ فعقّكَ البصرُ المُرويّ ... كذاكَ تَغِينُ أحلامُ الغِضابِ (١)

ستعرفُ حين تعركنا الليالي ... بمَنسمها الطّحونِ مدى صوابي (٢)

ابن سراج : سأعرفُ أن عهدَ الغيدِ يُلقى ... كما تُلقين أخلاقَ الثّيابِ (٣)

وأن بني الملوكِ إذا تَخطّوْا ... لَكُنَّ بكاذبِ الودِّ الخلابِ

بَسَطْتُنَّ القلوبَ لهم نِماطاً ... فرادوها بأخلاقِ الذئابِ (٤)

صبابةُ الملوكِ هوىً ولهْوٌ ... وعهدُهمو كخدّاعِ السرابِ

« يلتفت في غضب إلى ناحية من المسرح فيلمح موسى ابن أبي الغسان ومحمد بن سعد الزغل قادمين ».

بثينة : من المُفضي إلينا ؟

ابن سراج : ذاكَ موسى ... يرافقه محمدُ بنُ سعدِ

بثينة : أخُ الملكِ الغويّ ؟ !

[في تجهم]

ابن سراج : أجلْ

(١) البصر المروي: الذي يتفرس في الأمور بأناة . تغين : أي يتغشاها غين يحجب عنها صوابها .
(٢) المنسم الطحون الذي يهلك كل من وطئه . (٣) أخلاق الثياب بالياها .
(٤) النماط جمع نمط . وهو ضرب من البسط .

بثينة : فماذا يجيءُ بذلك الخصمِ الألدّ ؟
أيزعمُ غَدْرَةً أخرى ؟

ابن سراج : تأنَّ فمهما يُخفِ فالأيامُ تُبدي

« يخرج محمد بن سراج » .

المشهد الثاني

« يدخل محمد بن سعد الزغل وخلفه موسى بن أبي الغسان »

بثينة : تحيـةً لسيدي الأميرِ
تَعبق بالإعظام والتّوقيرِ

الزغل : حُييتِ ياذات الصِّبا النضيرِ
والحسنِ في رُوائه المنيرِ
وأين مولاتك ؟

بثينة : في خدورِها
تنظرُ فيما جلَّ من أمورِها

الزغل : استأذني لي..

بثينة : لستَ من يستأذنُ
سأُبلغ الأمرَ لها وأُعلنُ

« تخرج بثينة »

موسى : مولايَ هل تُصغى إليَّ ؛ فإن لي قولاً أرى إنهاءه لك واجبا
إن الأمورَ تَخُبُّ مُثقَلَةً إلى شرٍّ تموج به البلادُ مصائبا

إن عزّنا حَسْمُ الذي ثنى به ... كانت فجاءاتُ الدمارِ عواقبا (١)

الزغل : ماذا الذي تعنيه؟

موسى إنّ أظافراً ... من بيننا فتكت بنا ومخالبا

[في حدة]

الخُلْفُ والحكمُ المهجّنُ والهوى ... والبغْيُ تستعدي علينا الغاصبا (٢)

مولاي إن لم تَنْضُ عزمَكَ أو شكت ... هذى النوازلُ أن يكنّ معاطبا (٣)

الزغل : ماذا الذي قد جدّ بعد رحيلنا؟ ... إني أراك أثرتَ أمراً حازبا (٤)

موسى : فرْنانْدُ همّ وإيزابلاّ بالتي ... تقضي على العربِ القضاءَ الشاعبا (٥)

قد ألّبا عصبَ الفرنج فأزمعوا ... غدْراً فأصلونا العداء اللاهبا

جمعوا جموعهمو وضمّوا شملَهم ... يتبادرون مطامعاً ومآربا

متوافقينَ مذاهباً ومشاربا ... متآزرينَ قواضباً وكتائبا

ورمَوا معاقلَنا فكان جوابنا ... عجزاً وتهويماً ولهواً لاعباً (٦)

الزغل : هل خاس فرناندُ بموثقه؟

موسى : أجلْ

الزغل : وعهودُه المزجاةُ؟

موسى : كنّ كواذبا (٧)

الزغل : وأخي. أراجعَه؟ أفاوضه؟

(١) عزه : غلبه . (٢) الحكم المهجن : القبيح المعيب . (٣) نضا السيف : شهره واستله . المعاطب : المهالك . (٤) الأمر الحازب : الشديد المستعصب الحل .
(٥) القضاء الشاعب : المفرق بين الأشياء . (٦) التهويم : من معاني النوم .
(٧) خاس بالموثق: نقضه ولم يوف به .

موسى : وهل تثنى المفاوضة العدوَّ الواثبا
أدركْ أخاكَ المُلْكَ واشحَذْ عزمَهُ واردُدْ لهمَّتِه المضاءَ العازبا
أحكِمْ بطانته الغواةَ فإنهم مدُّوا عليه من الضلالِ غياهبا (١)
ساموهُ أن يردَ الهوانَ مواردا فانساقَ والبغْيَ الوبيءَ مساربا

الزغل : هذي البطانة كنتَ قيمها

موسى : لقد سدَّدْتهُ فازورَّ عنى جانبا (٢)
إن أنت صاحبتَ الملوكَ فلا تكن للحقِّ والمثلِ الرفيعةِ صاحبا
فإذا نصحْتَ بغير ما احتشدوا له نسخوا مناقبَك الوضاءةَ مثالبا

الزغل : موسى أراك أفضتَ غيرَ مُبيِّنٍ

« يفتح أحد الأبواب وتدخل عائشة فيتجه لها الجميع في إكبار »

عائشة : هل تأذنون ؟

[من عند الباب]

الزغل : أيأذن الأتباعُ

[في اكبار]

المشهد الثالث

الزغل : أقبلتُ حينَ بَعثتِ فاستقدمتنى وإذا أمرتِ فإنني المِطواع

[مستمراً]

عائشة : أهلاً بمن ترجوه أندلسٌ إذا عاثَ الذئابُ بها فعزَّ دفاع
وإذا الكوارثُ أظلمت وتهوَّلت فيها ، فأنتَ صديعُها اللمَّاعُ (٣)

(١) أحكم الرجل : منعه من الفساد . (٢) سدده : وفقه وأرشده إلى السداد .
(٣) تهولت : وضح فيها الهول . الصديع : الصبح .

الزغل : أختاه حسبك لستُ إلاَّ صارماً أنتِ الغداةَ له يدٌ وذراعُ
ما صال إلا فوَّقتْهُ زَكانةٌ أُوتيتِها وصَريمـة وزِماعُ[1]
المُلْك بين يديك مكلوءُ الحمى

عائشة : المُلْكُ مصدوع الأساس مُضاعُ!

[في حسرة]

الزغل : ولِم ؟

عائشة : الأمورُ توَعرتْ واسترهبت الحزمُ يُعطَى والسَّفاهُ يُطاع

الزغل موسى تحدَّث لي فألمـم بالذي يجري، وليس بمُقتنعي الإلماعُ

عائشة المُلْكُ يلهو ، والحوادثُ حوْلَه مُتظاهراتٌ ، والخطوبُ سِراع
والقصرُ تَنهتُ بالخنَـا قاعاتُه ويَبيتُ يُروَى إثمها ويُذاعُ
والحكمُ فوْضَى . لبُّهُ وقِوامُه ذممٌ تُسَامُ رخيصةً فتُباعُ
والشعبُ مكْدودُ القوى مُتحفزٌ إن الضعيفَ يصولُ حين يُراعُ
الجوْرُ مضروبُ السُّرادق حوله والهونُ ، والحرمانُ ، والإخضاعُ
الظّالموه غذاؤُهم من رَشْحـه وغذاؤُه الآلامُ والأوجاعُ[2]
قل للملوكِ اخشوْا شُعوبَكمو إذا غضِبوا وهم سُغْب البطون جياعُ
النارُ أوْهَى مُنَّـةً منهم إذا اندلعت وأعتلُ منهمو الدُّفَّاعُ[3]

الزغل : قد كنتِ يا أختاهُ مشرعَ رأيه وهُداه في ثَبَجِ الخطوب السُّودِ

[في اعتراض عاتب]

(١) الزماع المضاء في الأمر . والتوفيق تسديد السهم .
(٢) من رشحه : مما يتحلب من أعصابه . والمراد هو ما ينتخبونه بقوة اعصابهم سواء كان ذلك في مزارعهم او مصانعهم . (٣) المنة : القوة . الدفاع : الموج المندفع .

وإذا العظائمُ بادهتْه كشفْتِها بسنيٍّ رأيٍ كالصباح رشيدِ [1]

عائشة : قد كان ذلك حين يسكنُ إلى إغراءِ طامعةٍ ووَغْرِ حَقودِ [2]

لوقد تعاورنا الخطوب ونحن لم نُدمغْ بخُلْفٍ كالسلالِ مُبيدِ

لتقشَّعَتْ عنا الغداة فلم تنَلْ أرجازُها من ركنِنا الموطودِ [3]

فرقائدُهمْ بنا ...

موسى لقد أبلغتُه هذا ...

الزغل : فاصنعَ المليكُ الباسلُ ؟!

[في سخرية]

عائشة : قال الرسولُ له: الخضوعُ وجزةٌ مضروبةٌ ، أو ضُمَّرٌ وذوابلُ [4]

الزغل : أفذاكَ ماحملَ الرسولُ ؟

موسى : أجلْ ..

الزغل : فما كان الجوابُ

عائشة : ترفُّعٌ وتطاولُ

حَمِيَ المليكُ وقال « لا » مُتأبياً دون الذي طلبوا الحمامُ القاصل [5]

الزغل : تلك البطولة والتكرُّمْ

[في تقدير]

عائشة : قدْكَ لا تعجلْ . فما أمِنَ العثارَ العاجلُ

ألقى بصيْحته وعاد لِلهوِه فإذا الحجَى والحزمُ وهم باطلُ

(١) بادهه: فاجأه . (٢) الوغر : الحقد . (٣) أرجازها : جمع رجز وهو العذاب.
(٤) المراد بالضمر والذوابل : الخيل والسلاح وهي معدات الحرب .
(٥) حمى : أنف . الحمام القاصل : الذي لايبقي على شيء .

إن قلتَ «لا» فاحشدْ لها أوفاطْوِها حتى تَتِمَّ ذرائعٌ ووسائلُ

موسى : أعرفتَ ما يجري؟

[للزغل]

الزغل : وبعدُ!!

عائشة : فإنها لقواصمٌ تجتاحُنا وغوائلُ

لما رأيتُ الرأيَ أدبر وجهُه عنّي دعوتُك

الزغل : ربِّ ما أنا فاعلُ !

عائشة : هاتِ المقالَ الفصْلَ

الزغل إني ذاهلٌ مما سمعتُ وهل يُصيب الذاهلُ؟!

« يدخل أبو عبد الله محمد ثائراً مضطرب الخطى »

المشهد الرابع

عائشة : بُنيَّ

أبو عبد الله أمّاهُ

عائشة : هل أمرٌ تضيقُ به صدراً فإنك جَهْمُ الوجهِ مُضطربُ

ماذا وراءك؟؟ قلْ

أبو عبد الله : جورٌ تهضّمنا ما إن لنا دونه أمّاهُ مُضطَّربُ

أبي يُعِدُّ لنا أمراً

عائشة : وكيف؟

أبو عبد الله : لقد نزا به المُرديان: الحقد والغضب

أوحتْ إليه الثريّا فهو قاذفُنا بتهمةٍ مارَ فيها سمُّها السَّربُ

عائشة : ما تلك ؟

أبو عبد الله : قال . تمالأنا لنخاصمه

عائشة : دسٌّ تزاحم فيه الهونُ والكذبُ

أبو عبد الله : وقال : ألبتِ في غرناطة أسراً وفي الثغور إذا حرَّضتهم وثبوا
بنو سراجٍ ومن دانوا بطاعتهم وآلُ موسى ومن في جامهم شربوا
ورُحتُ أدفعُ هذا الكيدَ فالتهبت أوداجهُ وتولَّى وهو مُصطخِبُ

موسى : أإن صدَّ عنا الثريا أن تُقِرَّ على الـ عرش ابنها تلهب الدنيا فتلتهبُ
ان يرتقي العرشَ مَلْكٌ أُمُّه أَمَةٌ من الفرنج وفينا الخلَّصُ النُّجُبُ
ولن تَدينَ لهذا الذُّل أندلسٌ وملؤها العزمُ والإيمانُ والقُضُبُ

عائشة : موسى تماسكْ فلا تحملْك بادرةٌ على العثار ولا يجمحْ بكَ الغضبُ
لن يهجُم المَلْكُ مهما أضغنوه على جهلٍ تَرادَفُ في أعقابه النُّوَبُ[1]

موسى : بل إنه الشرُّ قد لاحت بوادرُه فالجُرْمُ مُرتكِبٌ والهولُ مُرتقبُ

عائشة : لا تُكبروا الأمر، هذا الغوطائفة تُريد أن توقظَ الأحداثَ والفتنا

: لا عرشَ إلا وفي أهدابه زُمَرٌ تعاطت الكيدَ رزقاً والأذى مِهَنا

أبو عبد الله : أمَّاه ليس اختلاقاً ذاك إن أبي ألقى إليَّ به في جفوةٍ علَنا

عائشة : بُنيَّ أمسكْ !

[في تحذير]

الزغل : دعيه يجلُ ما خفيتْ عنَّا سرائرُه مما يدور هُنا[2]

---

(١) أضغنوه : حرضوه .

(٢) جمع السريرة وهي السر الذي يكتم .

عائشة : هذي صغائرُ إن نُشغل بها اضطربت كبرى الأمورِ فلم تَملِكْ لها رَسَنا

الزغل : كبرى الأمورِ !! وأيُّ الخطبِ أفدحُ من

[في تمهد] هذا الذي حلَّ في جُنحِ الظلامِ بنا

دعوْتني فهداني الظنُّ أن ثُغرتْ لنا منافذُ رأيي يُنقِذُ الوطنا (١)

فجئتُ أبذلُ من جَهدي وحُرِّ دمي، وما أقلَّهما في نَصْرِه ثمنا !

حتى تكشَّفَ لي ما أنتِ هادئةٌ له . فهاجَ بقلبي الشكُّ والحزَنا

عائشة : ماذا الذي أنت تَعنيه ؟

الزغل : ركبت إلى

[في حدة] ولايةِ العهدِ هذا المركَبَ الخشِنا

دعوْتِ لابنكِ في رِفقٍ فحين نبا

مَسْعاكِ ، خُضْتِ لها الأحداثَ والفِتنا

عائشة : أخي : أراكَ فهمتَ الأمرَ مُلتبِساً

عليك . فارْشُدْ وقِيتَ الوهْمَ والظِّنَنا (٢)

الزغل : بل قد هُديتُ إلى ما قد مَهَدْتَ له وإنَّ لي في مناحي أُفقه سَنَنا

« يتجه للباب مغضباً فتسرع إليه عائشة وتمسك به »

عائشة : أمُحنَقٌ فجافينا ؟ ؟

الزغل : فِداكِ أبي

[في هدوء] الحرُّ يزداد فضلاً كلَّما امْتُحِنا

---

(١) ثغر الشيءَ فتحه وثلمه .

(٢) الظنن : جمع ظنة وهي التهمة .

« يدفع الباب في عنف ويدخل السلطان أبو الحسن »

المشهد الخامس

« ينظر الجميع الملك في احترام وتوجس . يتجه الملك لهم متئداً متفرساً فيهم واحداً بعد واحـــد في نظرات صارمـة تائهة »

الملك : كأنّي قطعتُ أحاديثكم ... وإني بما ضُمِّنت عالمُ
جمعتم جموعكمو فالتقى ... بذي الحسدِ الحاقدُ الناقمُ
حَذارِ . فقد يُستثار الحليمُ ... وقد يثبُ الأسَدُ الجاثمُ

الزغل : أخي !!

الملك : لستَ لي بأخٍ

[في حدة]

الزغل : ما الذي أرابك بي ؟

الملك : غدرُك الواغم [1]
أجئت لتُشـعلَها ثورةً ... علينا لأنت إذنْ واهمُ!
فدونَ الذي تبتغي شُقّـةٌ ... تَكِدُّ ومُضطَربٌ قاصم
[مشيراً لعائشة] سمعتَ لها فانْطوى كيدُها ... عَليْكَ ، فسعاكُما آثمُ

عائشة : فديْتكَ مولاي ماذا تقول! ؟

الملك : أأنكرتِ قوليَ يا عائشة ؟!

[في حدة] فضَحْتُ رياءكِ

عائشة : بعضَ الأناةِ ... ولا تُلْقِ بالتُّهم الحـادشهْ

(١) الواغم : الحاقد .

الملك : أيخدشك الحقُّ . لا تأمني فلي قـوَّةٌ لم تزل باطشهْ

[في تهديد]

عائشة : لقد سلبتْكَ النُّهى فاندفعتَ تُتابـعُ نَزْوَتَها الجائشهْ

[في صرخة]

فما كرَّمتْ شيبكَ المستفيضَ ولا رحِمَتْ يدَك الراعشهْ

الملك فمن تَلْمِزِينَ بهذا الهُـذاءِ ؟

عائشة ومن غيرُ رقصاتِك الجامشهْ ؟ (١)

الملك : وفيمَ دعوتِ النصيرَ العظيمَ ؟ !

[مشيراً للزغل في سخرية]

عائشة : ليَبرُدَ جهْلتَكَ العاطشـهْ

ويَمنعَ غرناطةً أن تَدُكَّ حماها سياستُك الطائشهْ

ويشركنا في اتِّقاءِ البلاءِ وتحضيدِ أنيابه النا هشهْ

قد اخْتُرِمَتْ دولةِ المسلمينَ وحُمَّت نهايتُها الجاهشهْ (٢)

الملك . بكيتِ على دولةِ المسلمينَ ألستُ أناءاهلَ المسامينا ؟ !

أليس ليَ المُلْكُ ـ ملكُ البلادِ ـ ألستُ القويَّ عليه الأمينا

أليس لي الأمرُ أمضي به شمالاً إذا راقني أو يمينـا

أنا المَلِكُ الآمرُ المستعان وهل كان شعبيَ إلا قَطينا (٣)

أرى ما أرى فيكونُ الخضوعُ وأخلقُ بما شئتهُ أن يكونا

---

(١) لمزه : عابه . والجامش هو المتكلم بصوت خفي والمراد هنا الوقيعة .

(٢) الجاهشه : النازعة في بكاء .

(٣) القطين : الخدم والحشم والاتباع .

الزغل : أخي : المُلْكُ عاريةٌ تُستَردُّ فلا تتَّبعْ سُبُلَ الظَّالمينا
فما ذادَ عن مَلك تاجُه ولكن رعيَّتُه المخلصونا
سياجُ العروشِ إذا لم يُقَرَّ على العدل خرَّ مَهيلًا مهينا

الملك : أتبذُلُ لي النصحَ ؟ إنَّ النصيحَ مريبٌ إذا شقَّه مطمعُ

الزغل : وما مطمعي ؟

الملك : مطمعُ المعتدين إذا همْ على غَدرة أجمعوا
أتحسَبني غافلًا . إنها لَتَغفُلُ عَيْني ولا تهجَعُ

الزغل : أراكَ ترينُ عليك الظنونُ

الملك : بل الحقُّ ، والحقُّ لا يُدفعُ

أهاجكِ أني دعوتُ الملا إلى بيْعَةٍ ؟

الزغل : ما الذي أسمع [1]

أتضطَّربُ الأرضُ من حولنا ونحنُ عن اللهْوِ لا نُقلِعُ

عائشة : جحافلُ أعدائنا رُصِّدت لنا وأسِنَّتُهم شُرَّعُ
وتفعلُ فينا سِعالاتُهم كما ترزأُ الأيكةَ الزَّعْزَعُ

الزغل : لنا اللهُ كيف نردُّ المُغيرَ وأركانُ أبياتنا تُصْدَعُ

الملك : أتُصْدَعُ أركانُ أبياتنا إذا وُثِّقَ العهدُ لابني

[في انكسار]

الزغل : أجلْ

الملك : وكيف..

---

(١) الملا : كرام القوم .

الزعل : ستُرْهِجُها فتنةً تكرُّ علينا بخطبٍ جلَلْ (١)
وتنهِرُها ثغرةٌ للفرنج لينفذَ منها القنا والأسَلْ (٢)

الملك : وجيشي الذي كابَدُوا بأسَه سيأكلُه الخلْفُ فيما أكل

الزعل : سطا وهو مجتمعٌ مؤمنٌ وهان إذا جاذبتْه السُّبُلْ
إذا الشَّعبُ زُلزل إيمانُه بقادته دبَّ فيه الفشلْ
وإن جاهدَ الجيشُ عن أُمةٍ تفرَّق شملُ بنيها انْخَذَلْ

الملك : فرائدُ من نفحاتِ الجِحَا جَرى السمُّ في سلْكِها وانهملْ
[ساخراً] أتُغرى بيَ البلدَ المطمئنَّ لحكمي وعدلي؟

الزعل : أخي لا تقلْ بذلتُ النصيحةَ أرجو السموقَ لمُلكك والطولَ بين الدول

عائشة : إذا قد عهدْتَ ليَحيى، هوت عُرى الأمرِ من يدنا فاضمحل
فلا تبذُرُنَّ بذورَ الشقاق ولا تخلُقنَّ شيعاً تقتتل

الملك : لقد صحَّ عزمي على ما انتويتُ ورأيي هو الحاسمُ الفاصلُ

[في صيحة]

أبو عبد الله : أبي فتريثْ

الملك : صه

الزعل : فاستجبْ إليه فقد يندَمُ العاجلُ

---

(١) أرهج بين القوم : هيج بعضهم على بعض . وأرهج : أثار الغبار .
(٢) أنهر الجرح : أوسعه .

الملك : تآمرتُما . وتنافستما فمن منكما الوارثُ الآملُ ؟ !

[لهما] عهدتُ ليحيى بحكم البلاد فمن غيرُه الكابرُ الكافلُ
ومن غيرُه كاشفٌ ضُرَّها إذا أزَمَ الحادثُ النازلُ
عهدتُ ليحيى فهل تسمعون؟

الزغل : دعاؤُك لم يَلْقَ منا سميعاً

الملك : وأنتم . وأنتم رؤوسُ البلاد فماذا تقولون؟

[لموسى]

موسى : لن نستطيعا
إذا قد أجزْنا الذي تبتغي ركبنا الهوى والأثامَ الشَّنيعا
كفاكَ افتئاتاً على أمةٍ تُناصبها وكفاها خُضوعا (١)

« يفتح أحد الأبواب في عنف ، ويدخل أمين القصر »

المشهد السادس

أمين القصر : أيؤذن لي؟

الملك : من؟ أمينُ القصورِ

أمين القصر : حملتُ إليك الخطيرَ الفظيعا
لقد هجّت الفتنةُ الثائرين كما هَجّت الهَضْبُ سيلاً دفوعا
عشيرةُ موسى تُثيرُ البلادَ وآلُ سراجٍ تقودُ الجموعا
يقولون: إنْ وُلِّيَ العهدَ يحيى شَرَعْنا السيوفَ فسالت نجيعا (٢)
فحطِّمْ بأيدِك هذا المروقَ وعالجْ بعزمك تلك الصُّدوعا (٣)

(١) ناصبه الشر : أظهره له . (٢) النجيع : الدم . (٣) الأيد : القوة .

وأسرعْ فإن اللقيفَ الأديب مَنْ حسمَ الشرَّ حسماً سريعا (١)

الملك : فماذا ترى أنت ؟ !!

أمين القصر : أعدُدْ لهم عذاباً غليظاً وفتكاً ذريعا
وطعناً يُصَبُّ عَلَى المارقين يَقُدُّ الرؤوسَ . ويَفري الضُّلوعا

الملك : هوَ الحزمُ جَذُّ رؤوسِ القطيع ونفرُغُ بعدُ فنبلو القطيعا

« ثم يلتفت لعائشة وموسى والزغل ويقول في حدة ثائرة »

سأُنقذُ من كيدكم دولة دَسستُم لها البغْيَ سُمّاً نقيعا
إذا أنا لم أكْفِها شرَّكم فلستُ حماها الحصينَ المنيعا

[ثم يقول لأمين القصر]

أمرت فأوثقهموا في القيود وضُمَّ إلى ابنِ الملوكِ الوضيعا
وقُدْهم فزجّهمو في الحُبوس حتى أرى الرأيَ فيهم جميعا

الزغل : أتهذى !!

الملك : نكوصاً دُعاة الشقاق فسوف تُلَقَّوْن يوماً فظيعا
يكُرُّ ببأس يدُكَّ الجبالَ عليكم . وهولٍ يُشيبُ الرَّضيعا
تُدهْدى رؤوسُكموكالكرينَ ويَزحم منكم صريعٌ صريعا (٢)

ستار

لتوضيح مرور بعض الزمن

---

(١) اللقيف : الحاذق .

(٢) تدهدى وتدهده : بمعنى تدحرج . الكرين : جمع كرة .

القسم الثاني

المنظر السابق

المشهد الأول

« وجد مشتغلة بوضع الأزهار في الأواني البلورية »

« تدخل أمل »

وجد : أملُ الجميلةُ !!

أمل : ويْكِ ما يُغني جمالُكِ أو جمالي
قولي : اللّعوبُ ، أو الخليعةُ أرْضَ ، أو ذاتُ الدلال
ويْلَ النِّساءِ إذا جَهِلْنَ فنونَ إرضاءِ الرجال

وجد : ماذا وراءكِ ؟

أمل : بتُّ أرزَحُ تحتَ أعبائي الثِّقال
لعِبَ الرجالُ بنا فلَمْ نَثْبُتْ على خلقٍ وحالِ
ناصحْتِني فنكَبْتِني

وجد : قولي فقد نَفِد اصْطباري

أمل : لما شكوْتُ إليكِ ما آنستُ فيه من ازْورارِ
قلتِ : اَلبسي ثوبَ الوقار وأمْسِكي عنه وداري
ففعلتُ أستَجْدي تقرُّبَه فأبعدَه وقاري

وجد : يالَلرِّجالِ عَشوْا فلم يَبْهرُهُمو وضحُ النَّهار
طَمَست على أذواقهم كِسَفٌ كمركومِ الغُبار
خلَعُوا العِذارَ فَهُمْ في كلِّ خالعةِ العِذار

أمل : أتفلْسُفٌ وفتايَ يوسِعُني مُجافاةً وبُعْدا

وجد : أملُ اصبِري !

أمل : ياوَجْدُ: نُصحُك دكَّ آمالي وهدَّا

وجد : لا تَقْلقي ستَهيجُ لوعتُه إذا ما ازددت صدَّا

أمل : سُخْفُ العواسِ فاحبسيه فقد جرى حسَداً وحِقْدا
إنْ أَلْقَهُ قبَّلْتُ فاهُ ووجْهَه خدًّا فخدَّا
وضمَمْتُه مشتاقةً ولْهى وإن نحَّى وردَّا

وجد : ويْكِ الكَرامةُ !

أمل : لا كَرامةَ والضُّلوعُ يقِدنَ وجدا

وجد : أنسيتِ يا أملُ الذي جئنا له!
[كمن تتذكر أمراً]

أمل : واللهِ كدْتُ
الهَمُّ يُنسى والشُّهادُ فكم أسيتُ وكم سَهِدْتُ

وجد : قد آنَ أن يَفِدَ الأميرُ فما الذي عاق الأميرَهْ ؟

أمل : خلَّفتُها تردانُ !

وجد : هل تَرْدانُ سَوْسَنَة نضيره؟

أمل : ضَعْفُ النِّساءِ فما خَلَتْ منه الصغيرة والكبيرهْ
هو خَفْقَةُ الطَّبْعِ المُثارِ ، ودعوةُ الجنسِ المثيرهْ

وجد : من أين جِئْتِ بعلمكِ الوافي وحكْمتكِ الغزيرهْ ؟

[متهكمة]

أمل : تتهكّمين على النُّبوغ كأنّ جاهلة غريرهْ

[في تعاظم] ذوق الهوى تَلْمَعْ لكِ الدنيا وتأتلقِ البصيرهْ
ما للأميرةِ أبطأتْ ؟

وجد : ستجيءُ يَحْدوها هواها

أمل : أحقيقةٌ هذا الهوى أم حيلةٌ حُبِكتْ عُراها ؟!

وجد : ولِمَ الخداعُ ؟

أمل : لعلَّهُ حَدَثٌ نَوْتهُ فاقتضاها

وجد : هل أنتِ في رَيْبٍ ؟

أمل : أجلْ بل زالَ عن عيني غِشَاها
ما آثرْتهُ بودِّها إلا لأمرٍ قد دعاها
سترينَ يا وجدُ الأمورَ إذا انْجلى عنها دُجاها

وجد : ماذا الذي تُلقين؟

[منكرة]

أمل : ويحَكِ صدِّقي

وجد : كفِّي اللَّجاجَ فلاتَ حينَ لجاج

أمل : من يومِ أن عقَدَ المليكُ لهوا ثرهُ بعرشٍ بعدَه وبتاج

جنحتْ إليه بكاذبٍ من وُدِّها وتنكَّرت لمحمد بن سراج

وجد : الحُبُّ بطرأُ والقلوبُ ضعائفٌ أرأيتها قد أحكمتْ برتاجِ
أيضيرها أن نازعته حبَّه

أمل : بل إنما تسعى إليه بحاجِ
هي غايةٌ حشَدتْ لها طاقاتها ومضت تُداهن حولَها وتداجي

« تلوح ثينة من بعيد »

وجد : هذي الأميرةُ أقبلتْ

[مرتبكة]

« تدخل ثينة »

ثينة : هل جاء ؟

وجد : لا لم يأتِ بعدُ

أمل : فربَّ عُذْرٍ عاقَهُ

وجد هذي خُطاه عَرفتُها . قدساقَها شوقٌ إليك يَحُثُّهُنَّ وساقَهُ

ثينة : هيَّا اتركانا وارقبا من حولِنا وَدَعاهُ يَنْفُضْ خالياً أشواقَهُ

المشهد الثاني

[يدخل الأمير يحيى]

ثينة : مرحباً بالأمير

يحيى : قولي: الحبيبا يهدأ القلبُ لوعةً ووجيبا
يا شُعاعَ السَّماء يَنْهَلُّ غَيْدانَ شفيفاً على الغديرِ طروبا

(١) نازعته : بادلته . وحاج : جمع حاجة .

يا رحيقَ الأنداءِ قَبَّل تحت الفجر نَوْراً رطْباً وغصناً لعوبا
يا دموعَ المهجور روجعِ فانثلْنَ على صدره رضاً مسكوبا
أقبلي تُقبلِ الدُّنا طَلْقَةَ الوجهِ وتَنْدَ الحياةُ راحاً وطيبا
مُنيةَ النَّفسِ ...

بثينة : بعضَ هذا الأسى الهدَّارِ يُذكى بين الضُّلوعِ اللَّهيبا

[كأنها مغلوبة على أمرها]

كادقلبي ينماعُ في لُحْنه العذْبِ وكادتْ حُشاشتي أن تَذوبا (١)
منذُ طالعتني بحبِّكَ أشفقتُ وقلتُ : العذابُ أن أستجيبا
وتمالكْتُ أبتغي من قضاءِ الله مَنجىً وموئلاً محجوبا
ثم ساءلتني أأهواك ؟ فاستحْييْتُ أن أُعانَ الهوَى المشبوبا
هذه أدمعي الذَّوارفُ تنساقُ فسلْها لعلَّها أن تُجيبا

يحيى : يا ابنةَ العمِّ ليس حُبُّكِ لهواً عابثاً لا ، ولا سَراباً كذوبا
إنَّه بَضْعةٌ من النور — نورِ الله — يَنهلُ عبقريَّاً رطيبا
إنَّه كالبحارِ عُمْقاً ، وكالصَّهباءِ عِتْقاً ، وكالجود رحيبا
كلَّما عبَّ ناظري منك طالعتُ جديداً من الجمالِ قشيبا
روْعةً تَطْبي العقولَ وحسناً كابتسام المُنى يُضيءُ القلوبا (٢)

بثينة : حَسْبُ مولاي ، لا تَقدْ قلبيَ المكلومَ ناراً ولا تَردْهُ نُدوبا
قد تمنَّيْتُ لو تَنَهْنَهَ عنِّي ألمٌ شفَّني مُلِحّاً دَؤوبا

---

(١) يتماع : يذوب .
(٢) اطباه : دعاه .

بحبى : أَلَمْ قُلتِ ؟ أقصحي عنه يابْنَ عَدَتْكِ الآلامُ والأوصابُ

[في حنو]

بثينة : لا تَسأني عن الذي أتصلَّى إنَّهُ الهوانُ والشَّجَا والعذابُ

بحبى : كاشفيني يابْنَ يارُبَّ ضُرٍّ كشفتْه صَرِيمةٌ وغلابُ (١)

بثينة : ما تُفيدُ الشَّكاةُ والمطلبُ المرجوُّ تُكدى في دَرْكه الطُّلَّابُ

ليسَ يَشفي الظَّمْآنَ أن يبلغَ الوِرْدَ إذا حلَّأَتْه عنه العقابُ (٢)

بحبى : بل فقولي فلستُ أُطمعُ روحاً إن تغشَّتْكِ لوعةٌ واكتئابُ

لستُ كُفْواً لطُهْرِ حُبِّكِ إن أعجزَ طوقي هذا الأسى المُنتابُ

بثينة : تلك أُمِّي يضُمُّها السجنُ أو كالأمِّ حاقت بها الخطوبُ الصِّلَّابُ

[في بكاء]

شَيْخَةٌ شجَّها من الذلِّ ظفرٌ ومن الضَّعف والزَّمانةِ نابُ (٣)

فارْمِ عنها أغلالَها وابذل العفوَ فأنت المُؤَمَّلُ الوَّهابُ

بحبى : ما لذي تطلبين ؟ . ذلك سؤلٌ دونَ تحقيقِهِ تُقَطُّ الرِّقابُ

[في فزع]

بثينة : هي مَظْلومةٌ

بحبى : ألا إنَّ بعضَ الظُّلمِ — إن أُمِّنَ البلادَ صوابُ

بثينة : لا بل الظلمُ معولٌ يهدم الدَّولاتِ مهما قرَّت بها الأطنابُ (٤)

إنه الفُرْجَةُ التي تُنفذ الثوراتُ منها فيستفيضُ الخرابُ

---

(١) الصريمة : العزيمة . (٢) حلأَه : منعه . والعقاب جمع عقبة .

(٣) الزمانة : المرض المستعصي . (٤) المراد بالاطناب هنا : دعائم الدولة .

يحيى : هذه دولةٌ نشدُّ بُناها

بثينة : اعدلوا ترفعوا البُنَى وتُثابوا [1]

يحيى : هل من العَدْلِ أن نُمَكِّنَ للثُّوارِ أن يَعصِفوا بأمْن البلاد
تلك غرناطةٌ إذا دبَّ فيها الخُلْفُ ذلت فريسةً للأعادي
إن كيدَ الإفرنج لا يُغمِض الطرفَ ، وجيشَ الإفرنجِ بالمرصاد

بثينة : هذه حُجَّةُ الثُّريَّا فدعْها وأرِحْني من الحديثِ المُعادِ
نَبِّئي ما يُخيف أُمَّك منها وهي حسْرى مَوْهونَةَ الأعْضاد
حملتْ عهدكَ الرقابُ فأمسى مستقرّاً مُستحْكَمَ الأوتادِ
واصطفتْكَ البلادُ سيِّدَها المأثورَ ترمي عن مجدها وتُرادي
أيُّ خيرٍ تجنيهِ أُمُّكَ بالتنكيلِ والجوْرِ غيرَ مَقْتِ العبادِ

[ثم تقول في نبرة تهديد] ربَّما حمَّلوكَ أنت خَطاها فانتصِحْني واسلُكْ سبيلَ الرشادِ

يحيى : طَالِعيني بالرأي ..

[في تخاذل]

بثينة : لا رأيَ إلا هَضُّ تلك القُيودِ والأصْفادِ [2]
مُرْ فأطلقْهمو فيارُبَّ فضلٍ لكَ أنجاكَ من صُروفِ العوادي

يحيى : هل تُرى أستطيعُ ؟

[في ضعف]

بثينة : أنت وليُّ العهْدِ فابْغِ بالوعْدِ والايعـاد

---

(١) البنى : جمع بنية ، وهي كل ما يبنى . (٢) الهضن : الحطم الشديد .

« تدخل وجد وأمل كل منها من ناحية مهرولتين » .

وجد : مولاي !

أمل : مولاي !!

يحيى : فهل من قادمٍ

أمل : هذا وزيرُ أبيكَ

بثينة : فلْنتفرَّقِ

يحيى : ومتى أراكِ ؟

بثينة : اعزِمْ وحزمَكَ فاستعنْ فإذا حَلَلْتَ وثاقَهم فسنلتقي

[في تحريض]

« يخرج يحيى »

[مستمرة لنفسها] أتراهُ يفعَلُ ؟ بل سيفعل إنَّه استخْذى لكاذبِ مَدمعي المُترقرِقِ

خادعتُهُ فتَخذْتُ منه مَطيَّةً لنشيدة لولاهُ لم تتحقَّق (١)

إن رُمتَ إدراكَ المُنى فافرُغْ لها وامْهَدْ لها شتَّى الوسائلِ واطرُقِ

« تخرج في قوة واعتداد »

أمل : كأنَّني ألمحُ بعضَ النُّذرْ تلوحُ في الأفْقِ ألا تشْعُرينْ ؟

هذا لقاءٌ قاذفٌ بالشررْ

وجد : عرَّافةٌ تهذي أما تستحينْ !

« تتضاحكان في مرح »

« يدخل الوزير أبو القاسم فتتصنعان الوقار » .

---

(١) النشيدة : المطلب .

أبو القاسم : عُصفورتيَّ الحُلوتيْنِ امرحا ... المَرحُ العذبُ صَلاةُ الشَّبابْ
ابتدرا اللذّات واستروحا ... والعُمْرُ زَهْرٌ والليالي رِطَابْ

وجد : في صوتِ مولايَ رنينُ الحزَنْ ... فَمِمَّ يشكو؟

أبو القاسم : صُحْبَةُ العاهِينْ

القصْرُ في حالاته كالزّمن ... يُعلى فيُلقى في قرارٍ مَهينْ
ما نامَ مِلْءَ العين في سِرْبِهِ ... ولا تَهنّى حاجبٌ أو وزيرْ
مـايدُ الأعداءِ تلوى بِهِ ... فإن نجا منها فَختْلُ العَشِيرْ

[ثم يخاطب وجداً]

وأين مولاتُك ؟

وجد : في خِدرِها ... وعندها مولايَ يَسْتَمْتِعانْ
تَسقيه شُهداً من جَنى ثَغْرِها ... ويحملُ الراحَ إليـه القِيانْ

أبو القاسم : يا دولةً هوّمَ أحراسُهـا ... فاستشرْت النيرانُ في غابِها
[لنفسه] مخمورةً يعبثُ سُوّاسُهـا ... والغاصبُ العادي على بابِها
لو أنّني أخلصتُ نُصْحي لهمْ ... وقلتُ : يمحوا المُلْكَ ما تفعلونْ
لم يَدفعوا الغَيَّ الذي لفّهم ... واستوزروا من لا يَرى أو يُبينْ

أمل : مولاى ، هذا قادمٌ

« تسمع وقع أقدام »

أبو القاسم : إنّهُ عليٌّ العطّـارُ

وجد : أكرمْ بِهِ

العزمُ والإقدامُ ما سَنَّهُ للجيشِ، والصبر لدى خَطْبِهِ

ابو القاسم : لكنَّه صُلْبٌ قويٌّ أمينْ يجهرُ بالحقِّ، وإن ساءهُ

وأبغضُ الناسِ إلى الحاكمينْ يا وجْدُ من كرَّمَ آراءهُ

« يظهر من بعيد الأمير علي العطار »

أمل : قد أقبلَ السيِّدُ . .

ابو القاسم فلْتَذهبا وهيِّئا لي خلوةً بالأميرْ

وأرهفا سمْعَيْكُما وارقُبا فكم بلوْنا من فُضولِ القصورْ

« يدخل علي العطار »

المشهد الرابع

علي العطار : سلامٌ عليكَ رفيقَ الشبابِ

ابو القاسم : سلامٌ على القائدِ الباسلِ

على حصنِ أندُلسٍ إن هَفَت لها نَزْوةُ الطَّامعِ الواغلِ

علي العطار : وما ينفعُ الحصنُ إن لم يَقُم ويَرسُ على خُلقٍ فاضلِ

لقد دهمتنَا الخطوبُ الثِّقالُ فبتْنا على جُرفٍ مائلِ

ابو القاسم : تريَّثْ ، ستلقاكَ مولاتُنا ومولايَ فانفُضْ له ما ترى

[في تبرم]

ودعْني فلا شأنَ لي!

علي العطار : كيف ذاكَ ألستَ لمولاكَ مُسْتَوْزَرا

ابو القاسم : بلى !

علي العطار : فالوزيرُ أمين الملوكِ مَسولٌ إذا خان أوقصَّرا

مَسولٌ إذاً ما رأى منكراً فأجفلَ أن يَحسِمَ المُنكرا

ابو القاسم : جَهِلْتَ السِّياسةَ فاسألْ بها فتىً باع في سوقها واشترى
يُحَبُّ الوزيرُ عميًّا أصمَّ ويُكْرَهُ مُدَّبراً مُبصرا
فأمَّا مَضى ليومِّ الصفوفَ فَلْتَمْضِ أخلاقُه القهقرى
وإن شاء أن يأمَنَ الحاقدينَ فلْيبْدِ غيرَ الذي أضمرا
ويُعْجِبُ بما يُعجبُ الحاكمينَ فإن أنكروه غداً أنكرا

علي العطار : أدستورُكم هكذا ؟!

[في احتقار]

ابو القاسم : هكذا ؟!

علي العطار : فأنتم ولا ريبَ أشقى الورى

ابو القاسم : تعجَّلْتَ في الحُكْم..

علي العطار : ماذا تقولُ

ابو القاسم : وهل يعرفُ الطعمَ من لم يَذُقْ ؟

علي العطار : ألستَ بمُدركِ حرِّ اللهيبِ بعالِمك إن أنت لم تحترق

ابو القاسم : عجبتُ ونحنُ نُسامُ الهوانَ نُهابُ ويُسعى لنا بالمَلَق
نَذِلُّ على عتباتِ الملوكِ لترمُقَنا بالخضوعِ الحَدَق
ونَحْيا على قلقٍ واصبٍ لديهم فنلتذُّ هذا القَلَق
هو الحكمُ إن رُمْتَه فاتَّضعْ وداهِنْ

علي العطار : أعوذُ بربِّ الفَلَق

فهذا النِّفاقُ ، وهذا الفسوقُ

ابو القاسم : ولِمْ لا تقولُ : الجحا واللَّبَق ؟

« تدخل أمل »

أمل : أيؤذن لي ؟

أبو القاسم : أدخلي يا أملْ

أمل : سلمتَ وبُلِّغْتَ أقصى الأمَل

دعاكَ الأميرُ لإيوانه

أبو القاسم : أذلك مولاكِ يحيى ؟

امل : أجلْ

ابو القاسم : إذا جاء مولايَ فابْسُطْ له رجاءكَ وادْعُ له وابتهِلْ

[لعلي العطار وهو يخرج]

تلطَّفْ له ! وتخشَّع لها فإن رَضِيتْ عنكَ لم تَنخذِلْ

« يخرج أبو القاسم وأمل »

علي العطار : سأبذُلُ نُصحي له خالصاً فقد يَنْثَني عن مهاوي الزَّلَلْ

ويا طالما دكَّ صدُّ الكُفاةِ عن الجَهْرِ بالحقِّ صَرْحَ الدُّوَلْ

« يدخل أمين القصر »

امين القصر : أقبلَ مولايَ المَلِكْ

علي العطار : عاش وعزَّ وَمَلَكْ

« يدخل الملك والثريا وجواري الثريا »

الملك : طلبتَ لقائي ياعليُّ فمرحباً بأكرمِ اصهاري وأعظم قُوّادي

على العطار : تعاليْتَ مولانا ولا زلتَ موئلاً لأندلسٍ من كلِّ ذي مَطْمعٍ عادِ

وهُنِّئْتَ بالعُمرِ الطويلِ مُوَشّعاً برفهِ نَنديّه الثريّا وإسعادِ

الملك : نطقتَ صواباً يا عليُّ فإنها لمشرَعُ إصداري ومنهلُ إيرادي

تُضيءُ لي الأيامَ بالعطفِ مُهدباً وتجلو لي الأحداثَ بالبَصَرِ الهادي[1]

وأنشبَ حُسّادي نواجذَ كيْدهم بُملكيَ فاسْتلّتْ نواجذَ حُسّادي

وسالتْ على الوادي أساكيبَ رحمة

وهبّتْ رُخاءً بالرَّجاءِ على الوادي

الثريا : سامتَ أمينَ اللهِ . بل إنه الرِّضا

أحالَ قُصوري تحت عينيكَ إحسانا

ولستُ وإن دلّلتني واصطفيْتَني

سوى أَمَةٍ أنتَ ابتنيْتَ لها شانا

« تسكت لحظة ثم تقول للملك في نبرات استعداء مستورة »

أتعطي علياً فضْلَ سمعك إنه كعادته إنْ سَأْسَلَ النصْحَ روّانا

الملك : تحدَّثْ عليٌّ إنني لك مُنصتٌ وخيرُ حديثٍ ما تضمّنَ برهانا

[في مثل النقمة]

على العطار : صديقك من وافاك بالصدقِ مخلصاً

وصاحبُك المأمونُ من محّضَ النُّصْحا

(١) العطف المهدب : الوارف الممتد .

الثريا : صديقٌ ؟!

[في اعتراض]

على العطار : أجلْ ..

الثريا : بل قُلْ : وليٌّ وتابعٌ

فمن خاطبَ العرشَ انتقى اللَّحظَ والمَنحى

على العطار : أصبتِ ، ولكنَّ الصَّداقةَ نفحةٌ

من الخُلدِ يَسْنى الليلُ في نورِها صُبْحَا

وما في حياةٍ لذَّةٌ أو رَفاغةٌ

إذا لم تَضُمَّ الحبَّ والعفوَ والصَّفحا

الثريا تحدَّثتَ عن عفوٍ وصفحٍ فإن تكن

[في إثارة] رميْتَ إلى أمرٍ ، فلا تَأْلُهُ شَرْحا

الملك : أجل فانْفُضِ الأمرَ الذي جئتَنا له

وإنْ أبلغَ القولُ الوجيزُ فقد صحَّا

على العطار أمَرْتَ بأهليكَ الكرامِ فغُلِّلوا

وخلَّفتَهم غبْراً بمحبِسهم طُلْحا (١)

وما قارفوا ذنْباً ولا اتَّبعوا هوًى

ولا ركَزوا في السُّوْءِ كَشحاً ولا جُنحا

وهمْ بعدُ زوْجٌ أنجبتْ لكَ وابنمٌ

وأصحابُ قُربى ولا ترثٌ ولا تُمحي (٢)

(١) طلحا : مهزولون من الاعياء . (٢) ابنم وابن بمعنى

فاعرِضْ عن الواشي بهم وانتصِفْ لهم
وعاودْ ــ هداك اللهُ ــ أخلاقك السُّمْحا

الملك : أتدفعُ عن قومٍ بَغَوْا وتمرَّدوا
[في غضب] عليَّ وسَقَّوْني المهانة والبَرْحا

الثريا : تريَّثْ ولا تغضَبْ بحقي وحُرمتي
[في عطف مصطنع] عليكَ وإن أدمت شفاعته القَرْحا
وصبراً على ما قال مولاىَ ربَّما
توخَّى لنا خيراً ! !

الملك : بل الثُّوبَ الكُدْحا
أتطلبُ للثُّوارِ عفواً ورحمةً
ففيمنْ نُجيلُ السَّيفَ أو نُنفِذُ الرُّمحا ؟
تعلَّمْ . قِوامُ المُلكِ حزمٌ وقسوةٌ
وليس قِوامُ المُلكِ هزْلاً ولا مَزْحا
جَزاء الذي خانَ البلادَ وعَقَّها
عذابٌ إذا أمسى ، وهُونٌ أذا أضحَى

على العطار . عَهِدتك يامولاي تصدُرُ عن هُدىً
إذا ضلَّت الآراءُ عن شِرعةِ الهُدى
لعلَّكَ تدري أن شعبَكَ لائذٌ
بعرشكَ يرجو عندَكَ العُرْفَ والنَّدى (١)

(١) العرف : كل ماتعرفه النفس وتطمئن إليه .

يؤمِّلُ أن تُضفي عليه صُبابةَ
من الفضل تحمي العَتْبَ أن يتوقَّدا (١)

الثريا : أتوعدنا ؟؟

علي العطار : حاشا !!

الثريا : لعلَّك لم تُرِدْ
فأحمقُ راجي منَّةٍ من توعَّدا

الملك : وماذا يضيرُ الشَّعبَ إن أخذ الذي
يُسيءُ إليه باغياً متعمِّداً

علي العطار : يقولون : قد ولّيتَ عهدَك كافياً
[في احتراس] وعطّلتَ من قد كان أكفى وأرشدا

الثريا : صهٍ ياعدوَّ اللهِ
[في حدة]

علي العطار : مولايَ هل ترى
[للملك] بثوبي عدوّاً أو وليّاً مُعضِّدا ؟

« يشيح الملك عنه بوجهه »

أتزورُّ يا مولايَ عني ولم أكن لعرشك إلا داعماً ومُوطِّدا ؟!
وكنتُ بكفَّيْكَ الحسامَ المهنَّدا وكنتُ على أعدائك سهماً مُسدَّدا
وإنَّ ولائي منذ أيفعتُ سُقتُهُ إليك فلم أُشرِكْ بك الدهرَ سيِّدا

الملك : عجبتُ أشعبي واجدٌ ؟!

(١) الصبابة : البقية . يحمى : يمنع .

الثريا : تلك فِرْيَةٌ فليس لهذا الشعب أن يتوجَّدا
وجدناهُ مهضُوماً فعزَّ ، وعائلاً فأيسرَ واستغنى ،وعُريانَ فارتدى
أيكْفُرُ نُعمانا فيعتبَ ! إننا لنَعْتَدُّ هذا العَتْبَ منه تمرُّدا
على العطار حنانيْك مولاتى ! أليس لأمَّة إذا مُنِيَت بالضُّرِّ أن تتنهَّدا
لعلَّ أشدَّ الظلم أن نَستفزَّها ونطلبَ منها أن تقرَّ وتحمدا
الملك : أراناطوتْنا غَضْبَةٌ عرَضَت لنا فند صوابُ الرأيِ عنا وأبعدا
فهلَّا تواضعْنا لحلْمٍ وهُبْيةٍ فقد نهتدى النهْجَ السَّوىَّ المُمهَّدا
الثريا : أتعدل عن رأيٍ حزمْتَ؟ أناقضٌ قضاءك ؟ إن الضعْفَ أن تتردد
[في اعتراض]
الملك : ثُريا دعينا إنه أمرُ دولةٍ نصون بُناها الضَّخْمَ أن يتأبَّدا[1]
على العطار : تعاليتَ يا مولاىَ بالعدلِ وحدَه تخُطُّ لهذا الملْك في العزِّ مَصْعدا
تَطوَّلْ على أسراكَ واحلُلْ قيودَهم تُحقِّقْ لهذا الشعبِ شَملاً مُوحَّدا[2]
وبادرْ لهذا الفضْلِ واسبقْ إلى التي تردُّ ازورارَ الناس وُدّاً مُجددا
وإنَّ من الأدواءِ ما لو تركتَه نهارَك لاستعصى فلم ينحسمْ غدا
الملك : إذا دخلوا عَقْدي ليَحيى وسالموا وألقوْا له العهدَ الوثيق المؤكَّدا
[بعد فترة تفكير] بذلت لهم عفوى وأمَّنت سِرْبَهم وجاهدتُ وحدى أن يَقرَّ ويَبْرُدا
الثريا : «إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكته
[في حقد] وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمرَّدا »

(١) تأبد المكان : أقفر وألفته الوحوش .
(٢) تطول : إمتن .

وكم من يدٍ قلّدتَ شبّتْ حفائظاً
وأورتْ دفينَ الحِقدِ فيمن تقلّدَا

علي العطار : دَعيه يُراجعْ ـ عزّ جاهُكِ ـ رحمةً
[للثريا] فقد كان مجبولاً عليها مُعَوَّدا
ويارُبَّ سيفٍ يُهَبْ وهو مُصْلَتٌ
فخوّف مَطويّاً وأدّبَ مُغْمَدا

أأدعو لمولايَ الوزيرَ ؟

الملك : ادعُه لنا

« يخرج العطار »

الثريا : ستَدْري مدى الشرِّ الذي هِجتَه غدا
تطبّاكَ شيخ السوء حتى حَسبتَه
نصيحاً . فهذا نُصحُه يقطرُ الردى (١)

« يعود الأمير على العطار ومعه الوزير أبو القاسم »

المشهد السادس

ابو القاسم : مولايَ . هل كرَّ مُنْتَني فدعوتني

الملك : العفوُ أحرى بالملوك وأخلَقُ
أطلقْ سَراحَ ابني وزوجي والأُلى اتّبعوهما

ابو القاسم : إني أُمرتُ فأطلِقوا
[في دهشة]

(١) تطباك : استمالك .

الملك ماذا تقول أأُطلقوا ؟

الثريا : هلْ أُطلقوا

[في صرخة]

الملك : ماذا الذي يَرويه هذا الأحمقُ ؟

ابو القاسم : أعجبتَ من قولي؟ حلمتُ وثاقهم والفضلُ أنتَ مَعينهُ المتدفقُ

الملك : أفهازلٌ أم ذاهلٌ !!

ابو القاسم : بل صادعٌ بجليل أمرِكَ

الملك لا أكادُ أصدّقُ

هل قد أمرتُك ؟؟

ابو القاسم : إن أمرَكَ ساقَه مولاي يحيى !!

الثريا : كاذبٌ ومُلفّقُ

الملك مولاكَ يحيى ابني !! أتهذي

ابو القاسم : إنّها لحقيقةٌ فابعثْ بمن يتحقّقُ

الملك : أمكابرٌ بالاثمِ ؟

[في هياج أشد]

ابو القاسم : ما إثمي ؟؟ أفي تصديقِ ما نقلَ الأميرُ المعرقُ

الملك : قد خُنتَ عهدي !!

[في غضب مكبوت]

ابو القاسم : لم أخنْكَ فذمّتي لك والولاءُ مُوكّدًا والموْثقُ

إنّي ظننتُ ولي عهدِكَ صادقًا وابنُ الملوكِ إذا يقول مُصدّقُ

الملك : لا تخلقِ الأعذارَ .قتالك قربةٌ لله

[في غضبة جامحة]

علي العطار : لا تحكمْ وصدرُك ضيقٌ (١)

مولاي محِّصْ مايقولُ فانّها

دَعْوى فان سقطتْ فعدلُك مُطبق

الملك : عني أتشفعُ في أثيمٍ خاتلٍ !!

[في ثورة]

« يدخل يحيى في سرعة فتتعلق به أنظار الجميع »

يحيى : مولايَ ما كذبَ الوزيرُ ولا ادَّعى

« اضطراب ودهشة وحيرة وتوجس تعم الجميع »

الملك : ماذا تقول ؟ أبنْ

يحيى : لقد خادعتُه وأمرتُ باسمك فاستجابَ وأسرعا

الملك : كيف اجترأتَ ؟

يحيى : دفعتُ ظلماً موبقاً وحميتُ ركنَ الملكِ أن يتضعضعا

الملك : بل قد هدمتَ أباكَ لم ترفُق به

الثريا : وهدمت نفسك غافلاً مُتطوِّعا

علي العطار : أفلم تكن أزمعتَ يامولايَ أن تعفو وتصفحَ مُفضلاً مُترفِّعا

فإذا حذا ابنُك حذوَ والدِه الذي خبرَ الأمورَ ، فقد أصاب المقطعا

الثريا حقٌ يرادُ به الضلالُ ، ومنطقٌ مُتخلِّجٌ ، ينسابُ سُمّاً مُنقعا (٢)

العفوُ عنهم مِنَّةٌ إنْ نولها آدتْ رقابَهمو فمالت خُشَّعا

(١) أي زلفى له وتقرب إليه . (٢) متخلج : مضرب وفيه شكوك .

أمّا اجتراؤهمُ على الإثم الذي قرفوا فإصرٌ ما أجلّ وأفضعا [1]

الملك : يحيى. أجبني من تولّى كبرها ومن الذي أغرى وحثّ واقنعا
كانوا الذئاب الخاتلين وكنتَ في أيديهمُ الحَمَلَ الذلولَ الطيّعا

يحيى : مولاي قدّرتُ الأمورَ فلم أجدْ رأياً أصحّ ولا دواءً أنجعا
ورأيتُ ما غشّى البلادَ فإن نقف صفّاً نجوْنا. أو نكلكنا أجمعا

المربا : ضيّعتَ مُلكاً أنتَ وارثُ عرشه والغرُّ من ملكَ النفيسَ فضيّعا

يحيى : إنضاع مُلكي والبلادُ منيعةٌ لم نَفقِد الشرفَ الأعزَّ الأرفعا
إن المهانةَ لا مهانةَ بعدها أن نُستذلَّ لغاضبٍ أو نَخضعا

« يدخل أمين القصر »

امين القصر : مولاي قد عمّت بلادَك فتنةٌ شعواءُ فاحسِمْها بحزمك تُحسمِ

الملك : ماذا وراءك؟

امين القصر : إنّ من أطلقتهم لاذوا بجيشٍ من عداك عرمرمِ
جنحوا لحيّ بني سراجٍ واحتموْا في آلِ زائدةٍ ، وآلَ مُتمّمِ
فتدافعت هذي القبائلُ خلفهم مُهتاجةً كالعاصف المتضرّمِ
وتفاوضوا الآراء ثم تسمّتوا أطرافَ وادي آشَ

الملك : ويحك أتمم [2]

امين القصر : وصلوا إليه مُدجّجين كأنّهم سيلٌ يُصبُّ على الوهادِ ويرتمي [3]

الملك : هاتِ المشورةَ ياعليُّ. ألا ترى تدبيرَ مُنتقضٍ وعزمَ مُصمّمِ

(١) الاصر : الجرم .
(٢) تسمت : أخذ سمته لجهة كذا .
(٣) فصلوا : خرجوا .

[للعطار] إنهدْ لهم في جحفلٍ لَجِبٍ فإن ناشبْتهم فاضربْ وشُدَّ وحطِّم[1]

عن العطار مولاىَ إن شهروا عليك سيوفهم قارعتُهم فمَحقتُهم لم أرحمِ

أما إذا طلبوا النجاةَ وسالموا فالرأيُ كلُّ الرأى في حَقْن الدَّمِ

صُقلت سيوفك للفرنج وإنها لتَعَفُّ عن مسِّ الولىِّ المُسلم

الملك أتظلُّ تبذُلُ لي نصيحةَ عاجزٍ العَجْزُ يعصِفُ بالممالك فاعلمِ

[في هياج ولوثة] إنِّي لقاذفُ جَمْعِهم بكتائبٍ تهوي عليهم بالقضاءِ المُبرَمِ

ومُقلِّمٌ ظفرَ المروق فبادِيءٌ بقرابتي وحرائري وبني دمي

ومؤدِّبٌ هذى البلادَ فجاعلٌ من أهلها جَزَرَ النسور الحُوَّمِ

من لم يُدعِّمْ بالأَسِنَّةِ مُلكَه والحزْمِ باتَ مُنَزَّعاً لم يَسْلَمِ

ستار

(١) انهد . انفر . وناشب : قاتل .

الفصل الثاني

في وادي آش من أعمال غرناطة .
قصر الوالي حامد بن سراج . قاعة الاستقبال .
حامد بن سراج جالس على أريكة .
يدخل عليه كاتبه .

المشهد الأول

الكاتب : مولاىَ يابنَ سراجِ قد جاءت الكتُبُ تترى
كتاب لوشةَ هذا

حامد : ماذا تضمَّنَ ؟

الكاتب : نصرا (١)

قالوا : رسولُك وافى لهم فحضٌ وأغرى
فأعملوا الرأىَ حتى انجْـلَى لهم واستقرَّا
قالوا إذا ما غزينا أدُّوا لنا العونَ جهْرا
فان غزوْنا تداعَوْا فقدَّموا العونَ سرًّا (٢)

حامد : لابأسَ فامضِ . .

الكاتب : وهذا كتابُ حاكمِ رَنْدَهْ

حامد : ماذا يقول ؟

الكاتب : يقول احتكمْ كما شئتَ عندَهْ

(١) لوشة ورندة والحامه بلاد من أعمال غرناطة .
(٢) تداعى القوم : جمع بعضهم بعضاً .

مُرْ يرُسل الخيلَ جُرْداً إليكَ يحملْن جُنَدَهْ

عامر : وثالثُ الكتْبِ ؟

الكاتب : من أوليائنـــا بالحامَهْ

يثّاقلون علينـــا ويؤثرونَ السلامَهْ

عامر : تبّاً لهم من ضعافٍ

الكاتب : ياسيّدي لاملامَـهْ

عامر : ألا نلومُ فريقَـــا من أهلِنا خاذلُونا ؟

الكاتب : بلادُهم منذ كانت معابرُ الفاتحينـــا

فان وهنوا فاستكانوا فنبْوَةُ المكرَهينا

عامر : فلْتمضِ أنت رسولاً لهم فقد يعـــدِلونا

فإنّهم لك صحْبٌ وأهلُك الأقـــربونا

« يدخل عامر بن نصر وهمام الأشبيلي فيخرج الكاتب »

المشهد الثاني

عامر : تحيةً ياعامرَ بنَ نصْرٍ

عامر : مُتّعْتَ بالنصر وطولِ العمْرِ

عامر : وأنت ما وراك ياهمّامُ ؟

همام : دانتْ لك الأقدارُ والأيامُ

ورائيَ الدعوةُ للجهادِ ونشرُها بين شعابِ الوادى

فقد تحدثتُ الى الأحياءِ فاقبلوا في غير ما إبطاء [1]

(١) الأحياء : جمع حي وهو القبيلة .

قالوا : إذا ما أمرتنا عائشه ... نُذعنُ للأمْرِ ولن نناقشَهْ

فإنها موئلُ هذى الأمّهْ ... إذا دهتها النُّوَبُ الملمّهْ

عامر : أما أنا فلم تزلْ حبائلي ... تُمَدُّ للعاصي من القبائلِ

أقدمُ الوعيدَ قبل الوعْد ... نَهجانُ يُغني منهما المؤدّى

حتى صَغوْا لرأينا جميعاً ... وآثَروا الطّاعة والخضوعا (١)

عامر : أخلصتُما في خدمة الأميرهْ ... فأبشرا بالنِّعم الكثيرهْ

ومن يُقَدِّمْ لذي الفضلِ يدا ... في يومه طالعَهُ الفضْلُ غدا

« ثم يقول في نبرة تهديد »

مولاتُنا إن تَرضَ عنا أغدقت ... وإن نُساورْها بجهل محقتْ

تَسقى من الصّاب إذا عيفَ العَسَلْ ... وهكذا يفعلُ قُوّامُ الدُّوَلْ

« يدخل موسى بن أبي الغسان ومحمد بن سراج »

المشهد الثالث

موسى : سلامٌ على الوالي الذي في رحابه ... نَعمنا بفضْلٍ وارفِ الظلِّ عاشب (٢)

نَصرتَ وآويتَ الذين تدافعوا ... لواديكَ مطلوبين من كلِّ جانبِ

بسطتَ لهم أمْناً وأضفيْتَ نعمةً ... وأصْرختَهم حتى اثنى كلُّ واثبِ (٣)

عامر : رُويدْكَ يا موسى. ألسنا أقاربا

موسى : لقد تَجدُ الخذلانَ عند الأقارب

وقد تَصطليهم نارَ حقدٍ وبغْضةٍ ... وتجرعُهم سمّاً كسمِّ العقارب

---

(١) صغا : مال .

(٢) العاشب : الكثير النبات والكلأ .

(٣) أصرخ : أغاث وأجار .

عامر : فإلاّ تكن هذي . فقدضمّ شملنا تدامُجُ آراءٍ لنا ومشاربِ (١)
وما لَمَّ أشتاتَ القلوبِ وراضها على خُطّةٍ مثلُ اتّفاقِ المطالبِ
وإلاّ يكنْ هذا وذاكَ فإننا صنائعُها من سائسٍ ومُحاربِ
لعائشةٍ ذِمّاتُنا وولاؤنا وما في يدَيْنا من قَنًا وقواضبِ

« ثم يلتفت في حدب واشفاق لمحمد بن سراج »

فديتُكَ يا ابنَ العمِّ مالكَ شاحباً؟

ابن سراج : أقيم على مُضنٍ من الهمِّ شاحبِ

عامر : أمازلتَ والأحداثُ يُضرى لهيبُها فيصهرُنا . تأسى لبعدِ الحبائبِ

ابن سراج : أتسخر من وجدي بها وهو جُنّتي إذا الدهرُ غازاني بصُمِّ النوائبِ (٢)
إذا المرءُ لم يُرْمضْهُ حبٌّ ولم يُقِمْ على عهدِ من يهوى كريمَ المذاهبِ
تهادى إلى سَمْواتِه غيرَ طامحٍ ودبَّ إلى غاياته غيرَ راغبِ

موسى : أتغضبُ أن تُلْقى بفضلِ دُعابةٍ ومْزح؟!

[لابن سراج]

ابن سراج : هداكَ اللهُ لستُ بغاضبِ
ولكنني أشجى لقومٍ تروّحوا بأشجانِ منكوبٍ وشقوةِ لاغبِ (٣)
نَعِمنا وكان المنعمون ضحيةَ وَثبْنا على أشلائهم للرغائبِ

عامر : أناةً. فليس الخطبُ مما يَعزُّنا إذا ما عركناه بأيدٍ عواصبِ (٤)
سنمضي إلى غرناطةٍ في كتائبٍ مُلَمْلَمةٍ مشفوعةٍ بكتائبِ

ابن سراج : عَناني الذي لاقتْ بثينةُ من أذًى وماقدّ دَهاها من خطوبٍ حوازبِ؟

(١) تدامج توافق . (٢) غازى : ساور . (٣) تروح : ارتاح واطمأن .
(٤) عصب الشيء : طواه وشده . وغلب عليه . وعصب الشيءُ : اجتمع عليه .

لقد عرفوا ما دبّرتْ فترافدوا عليها ذئاباً ضاريات المخالب [1]

أترضونَ هذا العارَ يكوي جباهنا فنُمسي وقد أغرى بنا كلَّ ثالب!

موسى : تحاملْ على جُرحٍ طويتَ وخلّنا نُداه على هَدْيِ الحجا والتّجارب [2]

فلا روْحَ حتى يرْحَضَ السّيفُ بأسَها

وكان علينا ذاكَ ضَرْبَةَ لازب [3]

ابن سراج : عكفْنا على التّدبيرِ نَهْراً فلم يلُحْ لنا بارقٌ يُجلي قناعَ الغياهب

وربَّ جهودٍ إن تراخَتْ تخيّبتْ ويومُكَ إن يغْرُبْ فليسَ بآيبِ

موسى : تَلبّثْ إلى أنْ يبْلُغَ الحشْدُ أوْجَهُ لنأمنَ ما استطعنا وخيمَ العواقبِ

فإنّ بناء المُلْكِ أهبَةُ حازمٍ وليس بناءُ المُلْكِ خفّةَ لاعبِ

ابن سراج : ظننتُكما لي صاحباً فتكشّفتْ طوايا كُما عن حائلِ الودِّ كاذب

[في ألم] وأقتلُ أدْواءِ النّفوسِ انطواؤها على يأسِها من صاحبٍ إثرَ صاحبِ

« تدخل عائشة والزغل فيلحظان هذا الجو المكهرر »

المشهد الرابع

عائشة : أكادُ أرى شيئاً من الخُلفِ مَسّكُمْ

موسى : أخُلْفٌ يرُادينا وأنت قريبُ [4]

ابن سراج : معاذَ وفاءٍ ضمّنا لكَ فالتقتْ سرائرُ في أفيائه وقلوبُ

فما هو إلا الرأيُ، هذا يرُدّهُ وهذا يراهُ والعُقولُ ضروبُ

عائشة : علامَ اختلفتُم؟

(١) ترافدوا : تجمعوا وأعان بعضهم بعضاً (٢) داهى : ساور وداور .

(٣) يرحض : يغسل . (٤) راداه : ساوره .

ابن سراج : حُجَجٌ قد جلوتُها ونفسي بأنداء اليقين تصوبُ

عائشة : إذا كنت بالرأي الذي سُقْتَ مؤمناً

فأنتَ — وإن أفحمتَ فيه — مُصيبُ

عليّ به !!

ابن سراج : قلتُ التباطؤُ غفلةٌ وضعفٌ ومالمُبطئين نصيبُ

فقالوا: التأني عصمة. قلت قد أرى

ولكنّ سيرَ الثائرين وثوبُ

نَقِمنا على حُكامِنا سوءَ حُكْمِهِمْ فما صَبْرُنا عن غَزْوِهِمْ؟!

سأجيبُ

الزغل :

[في اعتداد]

عرضتمْ لضَخْمِ الأمرِ لم تتذاكروا عواقبَ قد تَبْدو لكُمْ وتغيبُ

أأذريتُ أضْغانٍ وإيقاظُ فتنةٍ تدُكُّ قُوانا والعدُوُّ رَقُوبُ ! (١)

إذا لم نَقِفْ صفاً هلكنا، وأطْبَقَتْ قواطعُ تفري مُلكَنا ونُيُوبُ

فلا تطْمسوا الإسْلامَ إنّ شُروقَه سَيغْشاه مما تُرمعُونَ غُروبُ

تكادُ عُراهُ في الجزيرةِ تَنْضوي وتنقدُّ أشْطانٌ له وطُنُوب (٢)

عائشة : عَمَدْتَ إلى ما سُقْتَ لي فأعدْتَهُ وصلتَ بأوفى حُجَّة وبيانِ

تخيَّرتَ منها جاجاً، وآثرتُ غيرَه وإنّ سَبيلَيْنا لَمُخْتلفانِ

ولكنّنا نَمْضي لتوطيدِ دَوْلَةٍ فنحن على الغاياتِ متفقان

الزغل : حَلَفْتُ فلم أظْعَنْ بكَ السُّوءَ بَتَّةً ولا الشكُّ فيما تُضْمِرينَ عَراني

(١) أرث الضغن : أوقده . (٢) تنضوي : تبلى والمقصود بالأشطان والطنوب دعائم الملك .

على أنّها تكبو الجيادُ وتَلْتَوي مقاصدُ كافٍ في الرِّجالِ وبانِ
تأنّي . فأخطاءُ العِظامِ كبائرٌ كأقدارهمْ

عائشة : أينَ الصَّوابُ الذي ترى

أنترُكُ شَمْلَ المسلمينَ مُصدَّعاً شتيتاً ومُلْكَ المسلمينَ مُدَمَّرا؟
أقامَ على هذي الجزيرةِ قبلَنا أوائلُنا مُلْكاً أشَمَّ مؤزَّرا
فلما وَرِثْناهُ ورثناهُ ضامراً تَهاوى به حكمُ الطوائفِ أبْتَرا[1]
نَشِطْنا فوطدْنا له ثم مالأوا عليه ، فأمْسَى نَجمُهُ قد تغوَّرا
إذا نحنُ لم نُدركه كان بنا الرَّدى أحقَّ وكُنّا بالمذلّةِ أجدرا

الزغل : تعاليتِ هذي حجّةٌ لا أُرُدُّها

ولستُ - وإن خالفتُ - للحق مُنكِرا
ولكنَّ حَزْمَ الرَّأيِ والأمرُ مُدبرٌ
ولا خيرَ في حَزْمٍ إذا الأمرُ أدبرا
عَزَمتِ على الجلّى فإن تجمعي لها
جمعتِ - وقاكِ اللهُ - للجَهْلِ مُنكِرا

عائشة : وكيف؟

الزغل : لئن ساورتْ غرناطةً غداً بخيلكِ يحمانَ العديدَ المجمهرا[2]
مَهَّدْتِ لأعداءِ البلادِ سبيلَهُمْ إليها فأمسى صعبُهم قد تيسَّرا

(١) بعد تصدع النفوذ الأموي في الأندلس سنة ١٠٢٧ قامت دويلات صغيرة أشبه بالولايات وكان رؤساؤها يطلق عليهم اسم ملوك الطوائف . وهم موضع الاشارة في البيت .
(٢) العدد الوفير .

فما هي إلا أن يسوقوا جموعهم لتبلغ فينا ما تشاء وتشأرا

عائشة : وهمت أخي إني إذا الحكم دان لي ومكنت لاني في البلاد فسيطرا

« يشيح الزغل بوجهه متجهماً »

منعت ثراها أن يذل لغاصب وصنت حماها أن يباع ويشترى

فإن أقبل الإفرنج لاقوا أعزة

كأسد الشرى تفدى بأرماقها الشرى

ألا إنها الجلى نخوض غمارها لننقذ ملكاً أو نموت فتعذرا

الزغل أينقذ ملك أن تغشته فتنة تقطع من أوصاله ما تشجرا (١)

[في حدة] ويعصف بعض الشعب فيها ببعضه

كما تأكل النار الهشيم المتبرا

إذا كتب الله الهلاك لأمة رمى بعضها بالحرب بعضاً فدمرا

عائشة : إذا كتب الله الهلاك لأمة أقام عليها المفسدين وأمرا

[في صيحة] أيمنع سرب المسلمين مملك حماه الهوى والخمر أن يتدبرا (٢)

تصدت له رومية فانطوى لها وأسلم حتى كاد أن يتنصرا

تسرب فيها والمحى في ضرائها فهان ، وكان الكابر المتكبرا

الزغل : عرضت لحق لا سبيل لدفعه فمولاك محكوم وليس بحاكم

ولكن هذا الغزو هفوة عالم ويعتده غيري تلظى ناقم (٣)

فلا تحملي وزراً سيبقى على المدى وإن لم تريدي السوء وصمة آثم

---

(١) تشجر : التف .

(٢) حماه : منعه .

(٣) حقد وغضب .

موسى : أيأذنُ لي مولايَ !

الزغل . قل واقضِ بيننا فإن الهدى ينسابُ في رأي حازم

موسى : أتضمنُ إن لم تغشهم في وكورهم وننفرْ لهم كالعيلم المتلاطم (١)

أتضمنُ ألا يبعثوا بدسيسهم ليسعى لدى الإفرنج سعيَ المساوم

وليسَ كأحقادِ النفوسِ حوافزاً لخوضِ الدنايا وانتهاكِ المحارمِ

[في نجد] أتضمنُ يا مولاي ؟!

الزغل : تلك كبيرةٌ

وأحسبُ ما تخشاه أوهامَ واهمِ

ليمضُونَ في غدرٍ ولؤمٍ طويّةٍ فيهوونَ في أغوارِ هذي المآثمِ

عائشة : وإن فعلوا ؟؟

الزغل : لن يفعلوا

عائشة : فارتقبْ غداً نُطالعْ بتلك المُنديات الجسائمِ

الزغل : أُعيذُ أخي من خسّةٍ وخيانةٍ وإن مالَ عن بعضِ الهدى والمكارمِ

عائشة : أخوك استذلّته الثريا وَسْوَسَتْ له فمضت تقتادُهُ بالخزائمِ

[في حدة] ستَضْطَرُّه للهُونِ والبغيِ عالماً بعار الذى يأتيه أو غيرَ عالمِ

« يدخل صالح بن رضوان ومحمد بن زائدة ومعهما رسول مكبل بوثاق »

المشهد الخامس

عائشة : هذا ابنُ زائدةٍ وذلك صالحُ ماذا وراءكما ؟

صالح : الخطيرُ الفادحُ

(١) البحر .

عائشة : لا تحبسا ماساءَ من نبأٍ ، فقد ... تحتالُ فيه بصائرٌ وقرائحُ

ابن زائدة أترَيْنَ ثالثَنا !

عائشة : أجلْ فمنِ الفتى ؟

الرسول : رجلٌ لهُ حرَمٌ عليك صحائحُ

انبي رسولٌ لم أُحطْ عِلْماً بما ... أنا حامِلٌ

ابن زائدة : إخسأ فإفكُكَ فاضِحُ

صالح : تَسْعَى إلى أعدائنا برسائلٍ ... تلك الخيانةُ والمُروقُ الواضحُ

ابن زائدة : أيُّ الوشائج بالفرنجِ ودينِهم ... وصلتْكَ ؟

الرسول : تلك مَعايشٌ وصَوالحُ

ابن زائدة : هذا الدَّمُ العربيُّ عارٌ دافقٌ ... في نَفْسكَ الدُّنيا وهُونٌ راشحُ

الرسول : أألامُ أن أبي تزوَّجَ فيهمو ... فَنشأتُ أدْفَعُ عنهمو وأنافحُ ؟

ودرجت أنهل من مَشارِعِ رأيهم ... ومَعنُكم عني الغريبُ النَّازح

موسى : والدينُ ؟!

الرسول : إن الدينَ حبٌّ تنطوي ... فيه الدُّنا وتعفُّفٌ وتسامُح

عائشة : لا لومَ هذا الوزرُ وزرُ أبوَّةٍ ... غبرتْ فأثقلَ إصرُهُ الأعقبا

هذا التزوُّجُ بالفرنج هوى بنا ... خُلُقاً وهجَّنَ بيننا الأنْسَابا

أبناؤُنا ليسُوا لنا ، ولقد ترى ... منهم علينا العاديَ الوثَّابا

الرسل : الداءُ أعمقُ يا أميرةُ ثَغْرةً ... مما عَرضْتِ له وأوسَعُ بابا

لا يحفظُ الدُّولاتِ إلا أسرةٌ ... أمِنتْ وقرَّ سلامُها أطنابا

ابن سراج : شَقِيَتْ منازلنا فهذي زوجةٌ مذعورة لم تَطْعَم استتبابا
حَيْرى فلا حقٌّ يؤمِّنها إذا ما الزوج شاء فقطَّعَ الأسبابا
موسى : وعشيرةٌ أخرى تُراعُ بضَرَّة فتردُّ عامرةَ البيوتِ خرابا[1]
وبَنُون من هذي وتلك تَباغَضُوا وتحاسدوا فتفرّقوا أحْزَابا
هذا انهيارُ المسلمين وإن همو نَسلوا الكرامَ الجلَّة الأنْجَابا
صالح : مولاتَنا ألْقَى إليَّ دسيسُنا بالقصرِ أنَّ مع الرَّسُولِ كتابا
[في تحد] فتبعتُه فاقتدْتُه لكِ صاغراً ومعى محمدُ
عائشة : قد فعلتَ صوابا
ابن زائدة : وأرادتمزيقَ الكتابِ فقُلتُ إن تَفعلْ جعلتُكَ للحُسَامِ قِرابا
«يخرج الرسالة» هذى رسالته . .
عائشة : فمن أعْطاكَ هَا ولمن قطعتَ سَباسِباً وهِضابا ؟
[المرسول في خطورة]
الزغل : فضِّي الرِّسالة إنَّ في أطوائها لسؤالكِ المُلْقى عليه جَوابا
« تفض عائشة الرسالة وتقرأ في صوت صارم مضطرب »
من الثُّريَّا لا يزاب ـــــ لاّ تحيـــةُ الحُبِّ والولاءِ
وبعدُ ، فالقومُ خاتلونا وأظْهَرُوا سافرَ العَداءِ
إن يسبِقوكم فقد هلكْنا وعزَّ داءٌ على الدواءِ
لا ترجئوا ما اعتزمتموه نفقد معاً لانْحَ الرجاءِ
فنحن أصْهارُكم عقدنا لكم عُرى الوُدِّ والولاءِ

(١) العشيرة الزوجة .

وقد قبلنا الذي اشترطتمُ ومَقطعُ الأمْرِ للقاءِ

« اضطراب وتوتر يعمان الجميع تشير بعده عائشة لابن زائدة وصالح أن يخرجا بالرسول فيخرجوا ».

عائشة : ماذا يقول أخي ؟؟

[للزغل في هدوء خطير]

الزغل : نَهايةُ دَولةٍ وَفناء مملكةٍ ومصْرَعُ دينِ

[في غضب وحزن]

عائشة : بل إنَّها نُذُرٌ فإن نَحْشدْلها عَزْماً وإخلاصاً وصِدْقَ يقين
بتْنا مِن الأحْداثِ في مُتبوَّأٍ أمِنٍ ، وحِصْنٍ لا يُرامُ حَصينِ

عامر : مولاتنا احتكمي لرأيك وحده فإذا قطعت بخُطَّةٍ فريني
هذي جيوشُك عبَّأت إيمانَها للغزْو قبل وشيجِها المسْنونِ

عائشة : هل من مُشيرٍ بينكم أو ناصحٍ فعساه إن أخطأتُ أن يَهْديني

[في صلابة واعتداد]

موسى : فلتُجْمِعي ولْنَمْضِ ، إمَّا حِجَّةٌ لجنى المُنى أو حِجةٌ لمنونِ
قولي نَثِبْ والله داعمُ أزرِنا بالنصرِ والتَّوفيق والتمكين

عائشة : أكذا رأيتم ؟؟

« للباقين »

الجميع : إي نعمْ

عائشة : فلنعتزِمْ ولنستعنْ بالله خيرِ مُعين

« يدخل الأمير على العطار فترتسم الدهشة والمفاجأة على الحاضرين »

عائشة : من ذا أرى ؟!

[في دهشه]

حامد : هذا اميرُ الجيش في غرناطة

[في توجس]

موسى : هل جاءنا بنذير ؟

عائشة : أهلاً أميرُ الجيش !!

العطار : مولاتي اسلمي وَعدَتْكِ مُنسِئةً يدُ المقدور[1]

أين الأميرُ محمدٌ ؟

عائشة : نَزَلَتْ به مُذْ أمسِ حُمَّى الرَّاعد المقرور

العطار : إني وفدتُ له رسولَ القصر من غَرْناطةٍ والجيشِ والجمهور

أدعوه باسمِهِم ليحكمَهم على سَنَن الكتابِ وهدْيِه المأثور

[دهشة وصمت]

الزغل : ماذا الذي تُلقيه؟

العطار : شبَّتْ فتْنَةٌ جيَّاشةٌ بالفتْكِ والتَّدْمير

[في هدوء]

كالنَّار عاصفةً وكالدَّاءِ ما تلقاه تجرُفُ والرَّدى المسْعورِ

فرأى أخوكَ المَلْكُ أن يحتالَ بالـ بصَرِ الحصيفِ ومُحكمِ التَّدْبير

قال: اعتزلتُ الملكَ فالتمسوا الذي استخْلفَتْه في عهدي المنشورِ

---

(١) منسئة : مؤخرة ومؤجلة .

عائشة : يحيى يريدُ ؟؟

العطار : أجلْ !

عائشة : لتملكَ أُمَّه فتبيعَنا للغاصبِ الموتورِ

العطار : فأَبَوْا . فقال المَلِكُ : من ترضَوْنه ؟

أأخي وكان مُعاضِدي ووزيري

قالوا : محمدٌ بن عائشة التي كانَتْ قِوامَ جهادنا المبرُورِ

قالوا فإن دجَتِ الأمورنا كرت أغنتْ حزامتُها غَناء النورِ

فقدِمتُ وافدَهم إليكِ

الزغل : وما الذي فعلوا بذاكَ العَاهِل المقهُور ؟

[في حدة]

العطار خلَّفْتُه تركَ البلادَ مُشيَّعاً بمراسمِ التَّكريم والتوْقير

في مَوْكبٍ حفَّتْ به أحراسُه بلوائها وسلاحِها المطرورِ (١)

الزغل : أيُّ البلادِ اختارها لمقامه

العطار : مَلْقا .

الزغل : سيرْقى منبَري وسريري

[في تحد] إن خالبوهُ فأخرجُوه فإنهُ ضيفي هناك وسيِّدي وأميري (٢)

إنِّي لسابقهُ لها فمعدُّها للقائه كالفاتح المنْصُورِ

[في نبرة تهديد] لاتأمَنُوا الأيَّامَ إن هي أقبلتْ فصدورها موصولةٌ بظهورِ

« يخرج الزغل غير مسلم فتستوقفه عائشة »

(١) المطرور : المشحوذ . (٢) خالب : خاتل .

عائشة : ماذا عناكَ أخي؟ أتغضبُ أن وقى اللهُ البلادَ الفِتْنَةَ الشعْواء

هل كنتَ تبغي أن تؤجَّ عداوةً مشبوبةً أو أن تموجَ دِماء

اللهُ كرَّمها فوَجَّهَ جيشَها والنَّازِلين الوِجْهَةَ الغرَّاء

قل للأمير أخيك لا يجنحْ إلى كيْدٍ ولا يتعجَّلِ الأزراء

وليرْضَ حُكمَ الشعْبِ فهو مشيئةٌ

للهِ شَعْشَعَها سناً وسناء

اللهُ إن أخذ القُرى بفُسُوقها عصَفَ الخلافُ بها فكان قَضَاء

ستار

الفصل الثالث

في وادي الحامة ـ وهو من أعمال غرناطة .
معسكرات وخيام الملك فرديناند والملكة إيزابيلا .
خيمة استقبال أنيقة .
الحبر كارلوجالس عند منضدة يقلب أوراقاً وكتباً وهو منهمك في تفكير عميق .

المشهد الأول

« يدخل الكاهن لورنزو »

الحبر : لُرنزو . ما وراءك يا لرنزو؟

لورنزو : ورائي اليأسُ يَستشْرى وينزو

الحبر : وأيُّ اليأسِ ذلك ؟

لورنزو : يأسُ شعبٍ يبيتُ إليك ينسبهُ ويَعزو
يقول : لِمَ التَّقاعُسُ والتَّراخي وقد ضَوَّا له الأملُ الأعزُّ

الحبر : أليسَ الصبرُ والإعدادُ سُبْلاً لما ترجوهُ ؟

لورنزو : بعضُ الصبر عجزُ

الحبر : بُنيَّ العُرْبُ قد وهَنو وهانوا ولكن طا لما صالوا فَبَزُّوا
إذا لم تَغْنَمِ النُّهَزَ انصدْعنا فأُمُّ النَّصرِ إيمانٌ ونَهْزُ
أثَرْنا بينَهم مقتاً دَوِيّاً له في كلِّ جارحةٍ مَحَزُّ
فواثبَ بعضُهم بَعضاً فأمسوْا وما لهمو من الأحداثِ حِرْزُ
مليكُهمو الأسيرُ أدالَ منه كما بيَّتُ تحريضٌ ووَعْزُ(١)

(١) وعز وأوعز بمعنى .

أؤلّبُه وأُطمعه فيمضي وأدفعُه لغزوهمو فيغزو

« ثم يقول في حقد »

برئتُ من المسيحِ ومن أبيه ومن بُشرائه قَدُسوا وعزُّوا
إذا لم تَغْشَهم منا زحوفٌ مُعبَّأةٌ وأنفاطٌ تَئِزُّ (١)
لِنُزو . مُرْ رجال الدين يَمضوا لتأليبِ الغلاةِ ويستفزُّوا
ففي إجماعِهم للملْك حَضٌّ يُحاذرُ أن يُناهضَه وحَفْزُ
غداً تَبْرا الكنيسةُ من جراحٍ لها أبرٌ بمهجتها ووخزُ (٢)
فإنَّ مرامَها صَهواتُ مجدٍ وليسَ مرامَها رِيٌّ وخُبزُ

« يدخل الكاهن لويجي »

لويجي : أبي أفآذنٌ ؟

الحبر : أقبلْ لويجي

لويجي : وتركتُ ضيوفَنا يتآمرونا
همو إخوانُنا لغةً ودينا فكيف استَحْصَدوا ليُناوئونا (٣)

الحبر : أعَنْ أُمرائنا الاسبانِ تَروي فذرْهم في الضَّلالةِ يَعمهونا
متى خلفتَهم ؟

لويجي : ماكدتُ حتى قدمتُ وإنّهم لكما عَهدتا
طعامٌ ، فاجتماعٌ فانفضاضٌ وألوانٌ من التخليطِ شتّى
فما بلغوا بواكيرَ اتّفاقٍ وإن سلخوا من الليلات ستا

(١) عرفت الأنفاط أول ماعرفت في هذا العصر وهي قذائف من لهب تلقى على الجيوش والاستحكامات .
(٢) الابر : هو الجموح بالابرة ولدغ العقرب .
(٣) استحصدوا : كثروا وتجمعوا .

الحبر : وكيف عرفتَ ذلك ؟

لوبجي : من رجالى فقد رقبوا الأمورَ كما أمرتا
ألم تُنبئك مولاتي ؟

الحبر : ستُفضي إلىَّ بما علمتَ وما جَهِلتا

لوبجي : أأسألُ ؟

[في تردد]

الحبر : بل أجبني أنت

لوبجي : فاسألْ وأدعو الله أن أجدَ الجوابا

الحبر : أعنْ غرناطةٍ خبرٌ ؟

لوبجي : فإنَّا لمرتقبون رُسْلَهمو ارتقابا

الحبر : أليسَ اليومَ مَقْدمُهم إلينا وقد مسَّت جباهُهمو التُّرابا
قمعنا عِزَّةً لهمو وكِبْراً وأذْللْنا المعاطسَ والرِّقابا
وقوَّضْنا لهم مُلْكا بنَوْهُ فقرٌ وطائداً وعَلا قِبابا
وكانوا أمسِ مِلءَ القاعِ أُسداً فأضحَوا لاذئابَ ولا كلابا

لورنزو : وفيمَ مجيئُهم ؟

لوبجي : يَفْدُون ملْكاً أسيراً !!

الحبر : ضلَّ سعيُهُمو وخابا
أندفعُه لهم ؟؟ لوقد فعلْنا إذنْ ندَّ الحجا عنا وغابا
فليس كأسرِ مَلْكهمو سبيلاً يُبَلِّغُنا مَعاقلَهم وبابا
لقد ظنُّوا وقد نكبُوا الثريَّا ونالوا عرشَ عاهلِها اغتِصابا

بأن الدهرَ سالَمَهم فباتوا وقد أمنوا نوائبَه الصِّلابا
ستسْمَعُ ردَّ ملكِهمو عليهمْ فقد أسقيْتُه السمَّ المُذابا
وظَلْتُ أروضه حتى تراخت شكيمتُه فأذْعَنَ واستجابا

لوبجي : أبي ما كان ذا طَبَعٍ وغَدْرٍ ماليكُهمو غداةَ بنا ألَمّا
لقد خَضَّضْتُموهُ على قتالٍ وسَلْسَلتم له الإغراءَ سمّا
وأبديْتم له خَواراً وضعْفاً وأخليْتُم حصونَكمو فهمّا

الحبر : أجل . وثَنَتْهُ عائشةٌ وظلّت تُدافعه فقال : قتلتِ أمّا
وراجعهُ من الملأ القدامَى فلم يأبهْ لهم وازْدادَ عزماً[1]
فجاء بجيشه فتناوحَتْه ضياغمُ رُعنَه فَرْساً وقضْما[2]
وسِيقَ المَلْكُ في يدنا أسيراً وفرَّ فلولُه عانين كَلْمى

« ثم يشير إليها بانتهاء المقابلة ويقول »

إذا حضر الوفودُ فوقّراهُمُ وعُمّاهُمْ بتكرِمةٍ ونُعمى

« يخرج لورنزو ولوبجي »

المشهد الثاني

« الحبر يذرع الخيمة ذهاباً وجيئة ثم يسلط بصره من رسوم مسندة إلى حامل ويستغرق في تأمل عميق »

« يدخل كابرا »

كابرا : سيّدي الحبر انتظرها

« الحبر لاينتبه لدخوله وحديثه »

سيدى الحبر الجليـــــل

---

(١) القدامى : أهل المكانة .

(٢) تناوحته : همت به من كل جانب . والفرس : الافتراس . والقضم : الضغم .

سيّدي الكاهن

الحبر : كابرا ماالذي كنت تقول ؟

كابرا : قلتُ مولاتي ستلقاكَ

الحبر : متى ؟

كابرا : بعد قليلْ

الحبر : أين مولاتُك ؟

كابرا : تستقبلُ جمعَ الأُمراءْ
قادة الأسبان حُسّادُ علانا السُفهاءْ
أوصدوا القاعةَ والبَهْوَ وأبواب الفِناءْ
إنهم يقضُون في أمرٍ عظيمٍ لا مِراءْ

الحبر : أيُّ أمرٍ ؟

كابرا : علمُه عندكَ دونَ الرُؤساءْ
أنتَ قوّامُ السياساتِ وشيخُ الوُزراءْ
ماالذي ألّبَ هذا الوفدَ ياحَبْرُ فجاءْ ؟!

الحبر : حَسَدُ الأسبانِ للأسبان .حقدُ العظماءْ
ونزاعُ النَّفْسِ للغُنْمِ أتى دون عناءْ[1]
نَفِسُوا النَّصْرَ علينا فتَغاوَوْا أدْ عِياءْ[2]
[ضاحكا] : كالأُلى إنْ حضرُوا القِسْمَةَ قالوا: شُركاءْ

(١) نزع نزاعاً للشيء : اشتاقه وقصده .
(٢) يقال تغاوى القوم : إذا حضروا مجتمعين من هنا وهناك . ونفسوا : حسدوا .

كابرا : أينَ كانوا والرَّدى يَحْصِدُهامَ الشُّهداءْ؟
حينهولُ الحربِ مَضْروبٌ علينا كالْقَضاءْ
ورَحاها تطْحَنُ الأرْضَ فتهتزُّ السَّماءْ

الحبر : لاتَلُمْهُم إنّها الدُّنْيا افتراسٌ واعتداءْ
غيرَ أنَّ الفوْزَ كالحظِّ يُحابي الأقوياءْ
يُغْصَبُ المجدُ ولا يُعطَى، ويُكدِي الضُّعفاءْ

المشهد الثالث

« يدخل خادم »

الخادم : الملكةْ الملكةْ

كابرا : طالت حياة الملكة

« تدخل إيزابيلا »

ايزابيلا : إرجع لضيفي كابرا فإن دَعَوكَ فلَبِّ
وَإن لقَفْتَ جديداً من أمرِهم فاتّصِلْ بي

« يخرج كابرا »

« تتجه إيزابيلا للحبر ، وتقول في مرح » :

كارلو قدِمتُ ببشرى من أروعِ البُشْرَياتِ
فُزنا !

الحبر : بماذا ؟

ايزابيلا : بفتْحِ

الحبر فهـــــات ياموْلاتي

ابزابيلا : والى كُلُمْبُس نُجْحٌ ضافٍ وَحظ مُؤاتِ (١)
أصابَ كشفاً جليلَ الخيراتِ والثَّمَرَاتِ
مُلْكٌ جديدٌ فسيحُ الأرْجاءِ وَحفُ النَّبَاتِ (٢)

الحبر : هـذا رضا الله أفضى مُبارَكَ النَّفحاتِ
لله حَمْدي ونُسْكي مُقَرِّبا وصـــلاتي

ابزابيلا : هـذي أمانيٌّ كانت بَعيـــدةَ التَّحقيقِ

« ثم تقول في لهجة جادة » :

دَعْ ذلك الآنَ واقْشَعْ عنِّي ظلامَ طريقي
ألجأ إليك فألجأ للصَّادقِ المصْدُوقِ
عليَّ بالرأيِ رأي الهادي النَّصيحِ الصَّديقِ

الحبر : هل جدَّ أمرٌ ؟ فأدلي له بشرْحٍ دقيقِ
فالرأيُ أحزمُ بعدَ التَّقْليبِ والتحقيقِ

ابزابيلا : إنَّ الملوكَ توافَوا من كلِّ فَجٍّ عميقِ
قَدْ هالَهم ما أصبْنا من العُلى والسُّموقِ
وآنسوا أنَّ فَجرَ المُنى وشيكُ الشروقِ
قالوا : مواثقُ حلْفٍ تَضمُّ كلَّ فريقِ
لا سابقُ الغزْوِ منا يَطغى على مسبوقِ

الحبر : ياويحَهم ساورونا بطعنـــــة مسمومة

---

(١) الاشارة إلى اكتشاف كريستوف كلمبس لأمريكا في ذلك العصر .
(٢) النبات الوجف : الكثير الملتف .

إذا قبلنا خَسِرناً انفرادَنا بالغنيمـــــة
وإن رفضْنا اصْطليْتا لَظى الحُقُودِ القديمة

ايزابيلا : ماذا ترى ؟

الحبر : ساوِفيهم حتى تلينَ الشَّكيمهْ (١)
لاتَقْطعِي الأمرَ حتى تَصحَّ منا العزيمهْ
والخيرُ أن تستمر المفـــاوضات العقيمهْ
تظلُّ تُلهى فُتوهى عُرى الأمورِ الجسيمهْ

ايزابيلا : أحسنتَ كارلو فهذى هى السبيلُ القَويمهْ

الحبر : فهِمتُ ما جاء فيه جـــيرانُنا الأمـــراءْ

[بعد صمت قليل]

ومَلْكُ نابلَ ماذا أتى به يـومَ جاءوا
وبيننا عهدُ صُلْحٍ وذمـــــــةٌ وولاءْ

ايزابيلا : تركتُه وهو يُصغى لهـــم عَزوفاً مَلُولا
قالوا فجالُوا وصالُوا ولم يُردْ أن يقولا
إن صَحَّ ظَنِّي، وظَنِّي لم يَنْبُ إلا قليـــلا
فإنَّ رأياً خَطيرا يَطوي . وأمراً جليلا

الحبر : أكادُ ألمحُ ماذا حـــدا به أن يُلمّا
لعلَّه خالَ طرْدَ الأعداء قد بات حتما
فان فرْغنا اعتزمنا بمُلكـــه أن نَهُمَّا

(١) ساوفه : ماطله .

فجاء ينشُدُ سِلْماً أو جاء ينفُثُ سمّا

ابرابيلا : يجوز ؟!!

ذلك رأيي وربّما كان وَهْمَاً

« يدخل خادم »

الخادم : أقْبَل مولانا الملكْ

الجيش : عاش وعزّ ومـــلكْ

« يدخل فرديناند ملك قشتاله وأرجون ومعه فرديناند ملك نابلي »

المشهد الرابع

فرديناند : أردتَ عاهِلَ نابلْ أن تُحادثني في خَلْوَةٍ فتحدّثْ غيرَ مأمور
هذا وزيري ، وهذي ملكتي ولها
مقاطعُ الرأيِ في حُكْمي وتدْبيري

ملك نابلي : ياسيّدي المَلِكْ إن شقّ الحديثُ على
سمعيْك . إنّي لمُدلٍ بالمعاذيرِ
أو أظلمَ الخطبُ ، شعّتْ في جوانبه
نصيحةُ الصِدقِ اسكوباً من النورِ

فرديناند : أخي فخُضْ في الذي ترمي إليه وقلْ
ما شئت . أبذلْ له سمعي وتقديري

ملك نابلي : أدنى وفاءِ صديقٍ إن رآكَ على
هارٍ من الجُرْف أن يُومي بتحذير

لقد عرفتُ الذي جاء الملوكُ له

فرديناند : أما دهشت لما ساقوا وما قالوا ؟

ملك نابلي : لم تجعلوا العقلَ في تدبيركم حكَما فَلْتَ عن سَنَن المثلى كما مالوا

فرديناند : وكيف ذاكَ ؟؟

ملك نابلي : أما صحّت عزيمتكمْ على جديد قتالِ

فرديناند : تلك أقوالُ

ملك نابلي : بل قد شهدتُك تطويهم وتنشرُهم

وملء صدرك تصميمٌ وإعجالُ

لا تُشعلِ الحربَ تحرقْناً لوافحُها فذاك شرٌّ، وبعضُ الشرِّ قتّالُ

إن تَنكُبِ العُرْبَ في غرناطة عَصَفٌ

بقومنا نكبةٌ في الشرق مرقال (١)

المسلمون بظهرِ الأرضِ تجمعُهمْ — بأهْ العقيدةَ — آلامٌ وآمال

إبراهيم : المسلمون!! لئن كانوا ذوي عَدَد كالرَّمل. إن كثيبَ الرَّملِ مُنهالُ

[في ازدراء] كان اليقين لهم رأباً إذا انصدَعوا وكان إيمانُهم جُنْداً إذا صالوا

وكان أكرمَ ما سادوا به خُلقٌ حتى إذا زُلزلت أخلاقهُم زالوا

فرديناند : ماذا يُخيفُك منهم؟ مجدُ غابرِهم؟؟ لقد ذكا فخبا والدهرَ أدْوَالُ (٢)

[الملك نابلي] أهؤلاءِ بنو أقيالِ أندلسٍ ! ؟

إن يَنضبِ البحرُ تمكثْ فيه أوشالُ

أُنظر لأندلسٍ عرشاً لهم وشرىً لا الغابُ غابٌ ولا الرئبالُ رئبالُ

(١) مهلكة وسريعة . (٢) جمع غير مشهور لدولة .

ملك نابلي : فهل عزمت على الجلّى؟ أكادُ أرى ... فيما تقول الدَّمَ المطلولَ ينتالُ

لئن فعلتَ غُزينا في معاقلنا ... وداسنا رامحٌ منهم ونبّالُ

كالشّاةِ يُذبحُ مولانا وكابرُنا ... فإن نجا من نجا منّا . فأغلالُ[1]

[في حدة] أتنعمون بأمنٍ في جزيرتكم ... ونحن نُصمَى ونُستصفَى ونُغتالُ؟!

إن المسيحيَّةَ الغراءَ توبقها ... هذي الحماقةُ . فانظر كيف تحتالُ

الحبر : مولايَ إيذنْ فعندي ما أُجيب به ... حتى يقرَّ له بالٌ وبَلبالُ

خِفتَ اعتداءَ ملوكِ المسلمين فمن ... فيمْ إذا جلّتِ الاعباءُ حمّالُ ؟

ومن يُجامل في حربٍ إذا اضطرمتْ

والحربُ كرْهٌ وأثقالٌ وأهوالُ

أدولةَ الترك تخشى وهي مُشفيةٌ ... فلا كيانَ ولا جيشٌ ولا مالُ[2]

أم عُدْوةَ الغربِ مَن تخشى وإنهمو

لذاهلونَ عن الأحداثِ أغفالُ[3]

أم مصرَ . والخلفُ يفري جسمَها بمُدى

مسمومةٍ فهي أشلاءٌ وأوصالُ

أقصى جهادِ بنيها يومَ نازلةٍ ... تَصايحٌ وهُتافاتٌ وأقوالُ

وليس فيهم — وإن كانوا ذوي فطنٍ —

ماضٍ على غمراتِ العزمِ فعّالُ

ابن ابيد : أما ترى دولَ الإسلامِ ديلَ بها ... والدَّهرُ يومانِ . إدبارٌ وإقبالُ

(١) مولانا هنا يقصد بها الأتباع . (٢) أشفى : أشرف على الهلاك .

(٣) عدوة الغرب هي من ممالك أفريقيا .

كانت مقاصرَ مجدٍ شارفت صُعُداً ... صدرَ السَّماءِ فأمست وهي أطلالُ

الحبر : مولايَ أقدمْ فإن الدِّين أقلقهُ ... هُونٌ تحطَّمنا دهراً وإذلالُ (١)

[في حماسة ويقين] إدفعْ عن الدينِ وابعثها مُلَمْلَمَةً ... جبريلُ يقدُمُ مَسراها وميكالُ

فما تؤودُك غاياتٌ تُطاولُها ... ولا تحدُّكَ أبعادٌ وأطوالُ

ملك نابلي : هذا عِنادُ رجالِ الدِّينِ يركبُهم ... للدِّين . والعقلُ يأباهُ وينكرُهُ

ماخالفَ الحزمَ في شتَّى الأمورِ فلا ... تأخذْ به وإنِ استهواكَ جوهرُهُ

فرديناند : أخي سأنظرُ فيما قد عرضتَ لهُ ... واللهُ بعدُ مُمِلٌّ ما يُقدِّرُهُ (٢)

ملك نابلي : لاتبدأ القومَ بالعُدوانِ ما سَكَنوا ... فإنما يكتوي بالشرِّ مصدرُهُ

فرديناند : أخي لعلَّك تدري أنني رجُلٌ ... خلا من البغْيِ والعدوانِ عُنصرُهُ

إني إذا الشرُّ أبدى لي نواجذَهُ ... أقبلتُ بالصبرِ والإغضاءِ أزجرُهُ

ايزابيلا : ماكان زوجي بعادٍ يومَ بادهنا ... جيشٌ من العُرْبِ دكَّ الأرضَ عسكرُهُ

أكان منا اعتداءٌ دفعُ غارتهم ... أم أنه المُلْكُ نحميه وننصرُهُ

إن الحمى لبنيه لا لناصبِهِ ... وليس للغصْبِ عِلاَّتٌ تُبرِّرُهُ

[ثم تقول في ألم] : لقد مُنينا بإذلال تحيِّفنا ... نكاد نُغضي صَغاراً حين نذكرُهُ

ياسيِّدي الملكُ لاتكرثْكَ خطَّتُنا ... فلن نُساورَ إلا ما نُدبِّرُهُ

« يدخل لوبجي »

لوبجي : مولاي وفدُ العُرْبِ جاء

فرديناند : ومن زعيمُ الوفد ؟

---

(١) تحطمه وخطمه : جعل الخطام على أنفه ، أو ضرب أنفه إذلالا له .

(٢) يمل ويملي بمعنى .

لويجي : موسى

فرديناند رحّب بهـــم وتولهّم بالفضل واختَصَّ الرئيسا

ملك نابلي : إني لتاركـكم لتفرغَ أن تحـــجَّ وأن تسوسا

« يخزم ملك نابولي »

فرديناند : إيذنْ لهم . .

[الويجي]

ايزابيلا : فرناندُ إنَّ الأمر لم نقطعْه بعدُ

[للملك] هل مطلقون مليكَهُمْ أم مُكنْثُه حزمٌ ورُشْدُ

الحُجَّـــــان أصيلَتان ترُى فأيُّهما الأسَدُ[1]

الحبر : صبراً فإن دار الحديثُ فمدَّهُ أخـــذ وردُّ

[في خبث وثقة] سيقول مَلْكهمـــو فتنحسِمُ الأمـــورُ كما نَودُّ

« يلتفت بعضهم إلى بعض في نظرات دهشة ورضا ،

يدخل لويجي و كبراووراءهما وفد العرب، وهم : موسى بن الغسان وحامد بن سراج وصالح بن رضوان ومحمد بن زايدة »

المشهد الخامس

لويجي : وفدُ غرناطةٍ !!

موسى : سلامٌ على الملكَيْن مِنّا

فرديناند : تحيةٌ وسلام

مرحباً بالكرام خُلْقاً وسيْفاً والعظام الأُلى نماهُمْ عِظامُ

شَرُفتْ هذه الربوعُ المنيعاتُ بروّادها وهذى الخيامُ

(١) الأصيلة : الحازمة .

موسى أيها الملكُ هل نقولُ ؟

فرديناند : تكلمْ

[في ابتسامة] ربَّ وُدٍّ يجلو صداهُ الكلامُ

لا مَلُوماً إذا غضِبْتَ فخاشنتُ فللضيفِ حُرمةٌ وذمامُ

موسى : أيها الملكُ كيف نَغضبُ والملكةُ

[في ابتسامه مثلها] يَنهلُّ بشرُها والوَسَامُ ؟

فهي إن أجّت الأحاديثُ بَرْدٌ

وهي - إن قطّبَ الخلافُ - ابتسامُ

ايزابيلا : كدْتُ أُزهى بما تقولُ ففي النِّسوة ضَعْفٌ للمدحِ واستِسلام (١)

[في مرح متزن] ويَزيدُ الغرورَ فيهنَّ هيْجاً إن سقى غَرْسَه القوىُّ الهمامُ

ثم تعود إلى أنفتها واعتدادها

فرديناند ماالذي جئت فيه ياقائد العُرْبِ أحربٌ تهفُو لها أمْ سلامُ ؟

موسى : بل وفدنا والسِّلمُ مانتوخّى ولقد يؤثرُ السَّلام الكرامُ

فرديناند : ومن الموفدون ؟

[في خبث]

موسى : من يَملكون الأمرَ

[في حيطة]

فرديناند : بَيْنَ . فذلك الابهامُ

موسى : إنه مَلْكُنا ؟

(١) زهى بالضم : تكبر وتاه .

فرديناند — أَمَلِكٌ جديدٌ ؟؟

[في سخرية]

موسى — أفنقدٌ هذا أم استفهامُ ؟!

[في حزم] كلُّ شعبٍ في أرضه الفيصلُ المسئولُ

عنهـــا والأمرُ القوّامُ

ليس يعنى سواهُ إن نُصِّبَ اليومَ إمامٌ وفي الغداةِ إمام

فرديناند : ذاكَ حقٌّ لا رَيْبَ فيه، ولكنْ كلُّ حريّةٍ لأخرى لجامُ

إن تعدَّتْ حدودَها فهي جورٌ أو تأدَّتْ بالسوءِ فهي أثامُ

كلُّ حقٍّ إن لم يُقَيَّدْ بحقِّ النّاسِ فالبغْيُ سِلكُه والنظامُ

موسى : ما الذي نستشفُّ مما سمعناهُ

[في استنكار مكظوم]

فرديناند : أتعيا عن فهمهِ الأفهامُ

ابرابيلا : نحن جيرانُكم فإن مسَّت النارُ حماكُمْ هفا إلينا الضِّرامُ

فلنا أن نُبيدَها حيثُ كانتْ أو تخطّتْ لنا . فنحن طعامُ

موسى : أيُّها المَلِكُ ما لذلك جئْنَا فالذي سُقتَ غايةٌ لا تُرامُ

[لفرديناند في حدة]

فرديناند : حَكِّمِ العقلَ إنه تنجلي الظلماءُ في ضوئه فيُهدى الأنامُ

[في هدوء] وهَوى النفسِ — وهي أمّارةٌ بالسوءِ — كالجهلِ معْوَلٌ هدّامُ

موسى : حِكَمٌ هذه غوالٍ ولكن في تضاعيفها يمورُ السّمامُ

[في سخرية] لا تزدْ جُرحَنا اتساعاً وعُمقاً فجراحُ الموتورِ لا تَلْتَئِمُ

فرديناند : استمعْها قضيةً من قضايا العقْلِ يقضي فيها الدَّليلُ المقامُ
إنكم أمَّةٌ تعالتْ بها السنُّ فأمستْ أنحَى عليها السَّقامُ
سُنَّةُ اللهِ في العبادِ شبابٌ فاكتهالٌ فكبرةٌ فحِمام
وحواليْكمو ذئابٌ من الدُّولاتِ مغرِّية بكم لا تنامُ
فجعلوا أمْرَكم إلينا تراحوْا ويُؤمَّنْ في حِضننا الإسْلامُ

موسى : أيُّها الملْكُ هل تجَدُّ فقد يُشبه هزلَ الكلامِ هذا الكلامُ

الحبر : ويْكَ أقصرْ لا ينطقُ الملْكُ هزْلاً

فرديناند : إنه الجدُّ ! !

موسى : بل هي الأوْهامُ ؟!

[في صرخ] دُون هذا الذي تروم مَواضٍ جِدُّ مطْرورةٍ وجيشٌ لهامُ[1]
لا يموتُ الكميُّ منهُ غداةَ الرَّوعِ إلاَّ وفي يديه الحُسَامُ
إن ظفِرتم بنا ظفِرتمْ بقتْلى باعت اللهَ أنْفُساً لا تُضامُ

فرديناند يا أخا العُرْبِ ما أُراني أسأتُ القولَ حتى يَطولكَ هذا العُرامُ[2]

[في هدوء]
ما الذي قد فُهمتَ عني ؟

موسى : لقد أفصحتَ ، وانشقَّ عن مَداهُ القَتامُ[3]

فرديناند : بعضَ هذا فإنما نعْرِضُ الحِلْفَ !!

موسى : أحِلْفٌ هذا أم استسلامُ ؟

(١) المطرور : المسنون . اللهام : الذي يلتهم كل مايلقاه .
(٢) العرام : الشدة والقسوة . (٣) القتام : الغبار .

وإذا حالفَ القويُّ ضعيفاً فالضعافُ الاتباعُ والخدّامُ

الملك : قدْكَ إنّا مروّعون جميعاً فاتّساقُ الدفاعِ حتمٌ لزامُ
إنما ندفعُ اعتداءَ المُغيرين علينا وشملُنا ملتامُ

موسى : إن خضعْنا لما اقتضيتَ فقد ذلّ وأضوى في دارِه الإسلامُ

ابزابيل أينَ دارُ الاسلام ؟ هل سالبُ الشيءِ
[في حدة] مُحِقٌّ ، أم غاصبٌ ظلّامُ !!
تلك أوطانُنا لنا في ثراها ولآبائنا العِظام عِظامُ
بين حالى أعلامِها ورُباها قذفتنا الأصلابُ والأرحامُ
فنشأنا على رفافَ نصرانيّةٍ ملؤها السنا والوسامُ
ناصعٌ في وشائها الطُّهرُ والرحمةُ والحبُّ والهُدى والوئامُ[1]
ثم جاء الغُزاةُ فاقتسروا الصَّرحَ وأجلوا قُطّانَهُ وأقاموا
آن أن نستردَّ ما قد فقدْنا مالعزّ ولا لذُلّ دوامُ

موسى : حاذرى مَلكتي ففيما تسوقين وعيدٌ ؟

فرديناند : بل نيّةٌ واعتزامُ
إن رَضيتُمْ بنا حليفاً أمِنتُمْ وعدَتكم بعدُ العوادي الجِسامُ
ونَعِمتُمْ في حُكمِنا وهو فضلٌ واسترحتُمْ من حُكمِكُمْ وهو ذامُ

موسى : لا تقُلْها فإنّ للصبرِ حداً تؤثرُ الجهلَ عنده الأحلامُ
فابعثوا ماحشدتمو من زُحوفٍ ليس يُجدي هذا الوعيدُ العُقامُ

(١) الوشاء : جمع وشى .

فكثيرٌ من السَّحاب الجَهامُ وكثيرٌ من السُّيوفِ الكَهامُ[1]

فرديناند : أنتمو قِلَّةٌ ونحن ألوفٌ فأثيبوا للعَقْلِ فهو عِصامُ[2]

[في تماسك]

موسى : ليس بالكثرة النَّجاحُ إذا ما قلَّ فيها الإيمانُ والإقدامُ

الحبر : أين إيمانُ أُمَّةٍ ضَعْضَعَتْها فُرْقَةٌ في صُفوفِها وانْقسامُ

واجترائٌ على الكبائرِ حتى عَذُبَتْ في مَذاقِها الآثامُ

وإذا أُمَّةٌ تحطَّمت الأخلاقُ فيها وانهَرْنَ . فهي حُطامُ

كيف تجتثُّ أُمَّةٌ كيدَ خَصْمٍ حين أبناؤُها لها أخصامُ

موسى : إن دَهْتَنا خُصُومةٌ أيها الحبرُ ففيكم قسيُّها والسِّهامُ

بَيدَ أنَّا تَضمُّنا الثُّوبُ الصُّمُّ وتمحوا اختلافَنا الآلامُ

ويُقيمُ الصُّفُوفَ فينا يقينٌ شعَّه في نفوسنا الاسلامُ

الحبر : أنتمُ المسلمينَ حَمَّلتم الاسلامَ أثقالَكمُ وأنتم نيامُ

[في سخرية مستورة] لا تَرُدُّ العدُوَّ عنكم إذا كرَّ صَلاةٌ ، ولا يَقيكمُ صيامُ

ماتُفيدُ الصَّلاةُ إن زاغت الرُّوحُ ولفَّتْ أطواءَها الآثامُ

ليس بالدِّينِ نَصرةٌ إن غفوتم وهو إن رمتمو البقاءَ دِعامُ

فرديناند : سَحقُكم أيسرُ الأمورِ فما للحُكْمِ

[في حدة] إن طمَّه الفسادُ قِوامُ

الحبر : قد رشوتمْ أقولَها وارتشيتم واستباحَ المحارمَ الحُكامُ

[في صيحة]

(١) السحاب الجهام : الذي لا ماء فيه . والكهام : المفلول . (٢) أثاب : رجع .

واتَّجرتم بالعدلِ فالأمرُ فوضى فحدودٌ تُطوى وأخرى تُقامُ
وأكلتم حقَّ العُفاةِ المهازيلِ فمالٌ سُحتٌ وكسبٌ حرامُ (١)
ونزا اللغوُ والتحاسدُ والتمليقُ فيكم ودبَّت الأوغامُ (٢)
فإذا شيعةٌ تفرَّعت الحكمَ فهدمٌ في غيرها وانتقامُ
واتَّبعتُم أهواءكم فهوى عن الأخيارُ عن أفقكم ورفَّ الظلامُ
هكذا تسقطُ الممالكُ ياصاح وتردى في بغيها الأقوامُ

« ثم يوليهم ظهره ويحادث الملك والملكة »

حامد : قد قدمنا في مطلب أيها الملكُ ولمّا تأذنْ لنا أن نقولا

« يجلس فرديناند ويشير بيده في تؤدة ويأس »

فرديناند . هات ماجئت فيه يا بن سراجٍ ربَّ صعبٍ ذلَّلته تذليلا

حامد : قد بُعثنا في فديةِ الكابر المكبول فابذلْ لنا الجميلَ الجميلا
أيَّما فديةٍ رأيتَ بذلنا فاحتكمْ نُؤتها . وشكراً جزيلا

فرديناند : ومن المُفتدى ؟

[في هدوء]

حامد . صاحبُ غرناطةَ

فرديناند : يفديه عاهلاً أم أميراً ؟؟

حامد : بل جليلاً من أهله ولىَ المُلْك ، كريماً فعفَّ عنه أسيرا

فرديناند : عفَّ عن مالكه تقولُ ؟ أم اضطُرَّ فخلاه راغماً محسورا ؟!

موسى : سيِّدي الملك قد عرضنا الأمرِ فاتركه مُفضلاً مشكوراً

(١) المهازيل : الضعاف . والمال السحت : الحرام .
(٢) الأوغام : الأحقاد .

فرديناند : لو تولَّتْهُ أُمُّهُ فافتدتْهُ لحمِدنا صَنيعها المأثورا

[في خبث]

وَقدَرْنا بَلاءَها وهي تدعوه ليرعى شعباً ويَرْقى سريراً

حامد : أمَّةٌ أحزمُ النِّساءِ وأسماهنَّ عقلاً ومنزعاً وضميرا

لن تراها من أجلِ عرْشٍ عزَّ عليها تُصلي البلادَ سعيراً

فرديناند : لكمورأيُكم .ولكن ودِدْنا لو ظَلَلتم له وليّاً نصيراً

إنما يعطِفُ المليكُ على المخْلوعِ منهم مُشرَّداً مدحوراً

« يتجه الملك إلى إزابيلا والحبر ويتهامس معها »

« ثم يلتفت إلى حامد بن سراج »

فرديناند : لستُ أنْوي تقديرَ فِدْيةِ ضيْفي إنَّني تاركٌ له التَّقديرا

[ثم يشير للحبر] سيِّدى الحبر فادْعُه أنت واصْحبه فقد يَقدرُ الوَقورُ الوقورا

« يخرج الحبر »

« ينتحي موسى وحامد بن سراج ناحية من المسرح »

موسى : إنْ وَعَيْتُ الذي يدورُ فإنَّ القومَ قد أحكموا لنا تدبيراً

فاشحذ العزمَ والنُّهى والتَّجاربَ فإني أحسُّ أمراً خطيراً

« يدخل الحبر »

الحبر : مَلِكُ العُرْبِ

فرديناند : كرِّموا مَقْدَمَ الملكِ وحَنُّوا رؤوسكم توقيرا (١)

[لقومه]

(١) حنى الرأس أو اليد بالتشديد : عطفها كحنى .

« يدخل أبو عبد الله فيحيي الفرنج رؤوسهم ويهرع إليه وفد العرب »

أبو عبد الله : سلامٌ على قومي الكرامِ

[في تؤدة وسخرية]

موسى : تحيةٌ تُساق فتَسْني في يديْكَ و تزهرُ

حامد : وودٌّ وإكبارٌ وضارعُ طاعةٍ ومحضُ ولاءٍ صفوُه لا يُكدَّرُ

أبو عبد الله : ولاءٌ ووُدٌّ ؟؟

[في تجهم]

حامد : إي وربِّكَ

أبو عبد الله : إنه لقولٌ جفاهُ الصِّدقُ فهو مُزوَّرُ

تجَهَّمت الدُّنيا لنا وتقلَّبت وما زال للدُّنيا بطونٌ وأظهرُ ؟؟

فمالَ ولم يَكْرُمْ ذليلٌ محقَّرُ ومال ولم يُكلَمْ عزيزٌ مؤمَّرُ

وأصبحَ قومي بدَّلوا وتحوَّلوا وأمسى ثقاتي غيَّروا وتنكَّروا

موسى : حنانَيْكَ يامولايَ !!

أبو عبد الله : مولاكَ كُنْتُه وتاجيَ معقودٌ وجيشي مُظفَّرُ

[في حدة]

ولمَّا انتحانا الكرُّه من كلِّ جانبٍ وثوَّبَ داعٍ للجهادِ أن انفِروا

نَفرْنا خفافاً لم تُخفْنا عواقبٌ ولم يَثننا المُثاقلُ المتعثِّرُ

نقاتلُ عن اعراضِنا وذمارِنا وللهولِ أُظفورٌ وللموتِ مَنْسِرُ(١)

(١) منقار الطائر الجارح .

ونُقدِمُ حتى ما نُبالي من الرَّدى ... وما يَنفعُ الإقدامُ والحظُّ مُدبرُ
وقيلَ إسارٌ أو فرارٌ فكرَّةٌ ... فقلتُ : الرَّدى لو خُيِّرَ المتخيِّرُ
وظَلَّتْ بأيدينا السيوفُ تَكسَّرُ ... إلى أن تغشَّانا القضاءُ المقدَّرُ
أُسرنا فلم يَجرحْ لنا الأسرُ نخوةً ... وعُدتمْ بذمَّاتٍ تُباعُ وتُحْقَرُ

موسى : ستسمعُ تأويلَ الذي قد أثرتَه ... وقد يَدفعُ اللَّوْمَ الملومُ فيُعذرُ

[في هدوء] فلا حُجَّةٌ إلاَّ بأخرى تُقيمُها ... فتُجلى عماياتُ الأمورِ وتُسفرُ ؟
وإن كبيرَ الشرِّ يؤتي فتتَّقى ... به نكباتٌ هنَّ أدهى وأكبرُ

أبو عبد الله : أإثمٌ وإصرارٌ الئن كنت صادقاً ... فبيِّنْ ..

[في حدة]

موسى : وهل أستطيعُ والقومُ حضرُ ؟!

[مشيراً للافرنج]

فرديناند : أخي، أفنُخْلي البَهْوَ ؟

[لأبي عبد الله]

أبو عبد الله : بل فابْقَ مُفضِلاً ... لتشهدَكم يأسى الكريمُ فيصبرُ

[ثم يخاطب موسى]

أجبْني ياموسى، ففيمَ مجيئكم ... أفي فدْيةٍ ؟ هذا الذي كنتَ أحْزِرُ[1]

موسى : حَزِرْتَ فلم تُخطئْ

أبو عبد الله : فما فَضْلُ فديةٍ ... وعرشي مغصوبٌ وحَقيَ مُهْدَرُ
سطوتم بمُلكي ثم جئتُمْ بغاصبٍ ... فوالَيْتموهُ فهو فيكم مؤمَّرُ[2]
خلعْتم ولائي بعد عهدٍ وبيْعةٍ ... وقد كان حُوباً أن تخونوا وتغدُرُوا[3]

(١) حزر الأمر : توقعه . (٢) سطا بالملك : أطاح به . (٣) الحوب : الاثم .

فلا تجمعوا الشرّين خِتْلًا وحيلةً على، وعودوا فاتقوا الله واحذروا

وربَّ غدٍ تنهلُّ في صُبحه المُنى يُوكبُها الفتحُ الأغرُّ المؤزَّرُ

موسى : أتعني الذي تُلقيه أم هي غضبةٌ تقلقلُ في صدرٍ فترغي وتهدِرُ!

[في امتعاض]

أبو عبد الله : أجلْ غضبةٌ قامتْ على الحزمِ والحجى

ولم تستثرْها نزوةٌ تتفجَّرُ

موسى : تدبَّر — وقيتَ السوءَ — ما أنت مُقدمٌ

عليه ، فقد يَستعصمُ المتدبِّرُ

أبو عبد الله : ستلقونها قُبَّ البطونِ فوارهاً يموجُ حواليْها العديدُ المجهَّرُ (١)

مطاعينُ حتى يبردَ الثأرُ غلَّهم فإنَّ الضعيفَ الغُمْرَ من ليس يثأرُ (٢)

موسى : أتثأرُ من أهلٍ وصَحْبٍ وأُمَّةٍ مكانُكَ فيها الباذخُ المتصدِّرُ

[في ثورة] وشعبٍ تردَّى في الهوانِ لتكرُموا

وجاعَ لتستغنوا ، وأكْدى لتظفَروا

ويَلْقى الأذى والهونَ منكم فيصبرُ

ويَعْرى ويُستصفى فقُتني ويَشكرُ (٣)

تهوَّرتَ أن أقدمتَ في حمأةِ الخنى وجُللتَ عاراً آخرَ الدهرِ يُذكرُ (٤)

أبو عبد الله : صه ياعدوَّ الله .

---

(١) قب البطون فوارها : أى ضوامر نشطة ، وهي أوصاف للخيل .

(٢) مطاعين : أشداء الطعن . والغمر : الأحمق .

(٣) يستصفي المال : يصادر .

(٤) تهور : وقع في الأمر بقلة المبالاة .

موسى : إن عدوَّهُ هو المارقُ الباغي عليه المبصَّرُ
تحدَّثتَ عن حربٍ عوانٍ نذوقُها فأنّى لك الجيشُ المُغيرُ المظفَّرُ؟
أبو عبد الله ستعرفه والأرضُ تهتزُّ تحته
[في قحه] وبيضُ الظُّبا كالشُّهْبِ ، والأُفقُ عنيرُ
موسى : حسبتَ التواءاتِ الكلام سواتراً عليك ووجهُ الأمر فيهنَّ أظهرُ
فما كان جهلاً أن سألتُ وإنما
تمنَّيتُ أن تَنفى الذي كنتُ أحذِر

« مستمراً في ثورته ومتجهاً نحو الأسبان »

لقد عجَزوا عنا عَدُوًّا مُقاتلا فشبُّوا حزازاتِ النُّفوسِ وسعَّروا
وصالوا علينا بالأُلى هم دُروعُنا وأغروْا بنا أسيافَنا وتأخَّروا
فلو قد تساقيْنا الرَّدى وتراجحت مغارمُنا . كرُّوا علينا فدمَّروا (١)
أتشهرُ سيفَ الأجنبيِّ وحقدَه علينا ؟ فهذا العارُ لو كنتَ تُبصر
إذا ندَّ عنك اليومَ بارحُ كيدِهم فإنَّك مَفروسٌ غداً فمتَبرُ
وإن مطاياهم لتُكرَمُ وسَّقاً فإن أبلغتْهم . جدَّلوها وعقَّروا (٢)
فرديناند : شَغبتَ على مولاك ترميه مُبطلا فقلنا لعلَّ الشرَّ بالحلم يُقصر
فأوضعْتَ فيما سُقت حتى اتَّهمتنا وللضَّيف عندي حرمةٌ ليس تخفرُ
قدِمْتَ سفيراً والسفيرُ مؤمَّنٌ فكُفَّ ، فإني ناصحٌ لك مُنذر

---

(١) المغارم : الخسائر . (٢) الواسق : الناقة الحاملة للوسق ، وهو الحمل ، والمعنى أن الغاصبين يكرمون خونة بلادهم حتى يبلغوا غايتهم ثم يزدردوهم أو يبطشوا بهم .

موسى : نشدتُك فاقنِ النُّصحَ والنَّذْرَ واسترحْ
فَنُصْحُك مَدْخولٌ ، ونذرُك أبتر (١)

شهرتَ على الإسلامِ حرباً قَسيةً ظهيرُك فيها المُسْلم المتطهِّر (٢)
تُقيمُ له جيشاً فيغزو به الحمى وإنك غازٍ فوقَه ومُسيطرُ
ستعلمُ يومَ الرَّوْعِ أن سيوفَنا يَهون عليها العاهلُ المُتَجَبِّر
فإن تُدبِرِ الأقدارُ فالصبر جُنَّةٌ
وإن تكبُرِ الأحداثُ فاللهُ أكبرُ

ستار

(١) الطعام المدخول : ماذا جرى فيه السوس والعفن .
(٢) يقال يوم قسى أي شديد من حرب أو شر . والظهير : المعاضد .

الفصل الرابع

المشهد الأول

« القاهرة : قصر السلطان الأشرف قايتباي بالقلعة
قاعة فخمة على الطراز الشرقي »

« الأمير أزبك جالس على أريكة
وقنصوه الغوري يروح ويجيء بالقاعة »

أزبك : وبعدُ ؟

الغوري : فَتِلْكَ أنبائي !

أزبك : فماذا ترى ؟

الغوري : إنّي أرى الشرّ الوبيلا
ركِبْنا الجهْلَ أزبكُ مُذ شَهرنا على التركِ الذّوابلَ والنُّصولا
فإن كنّا بِحُنْكتِك انتصرنا فقد هجْنا العداوةَ والذُّحولا[1]

أزبك : أجل إنّ الحماقةَ ما صنعْنا فقد طَمسَ الهوى منا العقولا

الغوري : ستَلْقى « يايزيدَ » غداً مُغيرا علينا ، والخطوبَ بنا نزولا[2]

أزبك : نطقتَ الحقَّ قَنْصوهُ فإنّا لنأتي الأمرَ لم يخْبرْ فتيلا
نَهُبُّ إلى الصّغائر نبْتغيها ونقْفوا الهزْلَ والهدفَ الهزيلا
إذا قمنا إلى عملٍ أسأنا ونُحسِنُ أن نَصيحَ وأن نَقولا

(١) الذحول : الثارات .
(٢) الاشارة إلى العداوة التي كانت مستحكمة بين بايزيد الثاني سلطان تركيا وقايتباي .

الغوري : أليست مصر تُنبتُنا وتَنمى ؟

[في سخرية]

أزبك : أخي كم أنبتتْ مصرُ الفحولا
ولكنّا تواكلنا فهُنّا كما رَكب الصّدا السّيفَ الصّقيلا

[ثم يقول مفاخراً] إذا أهلُ السّياسةِ ضلّلوها فَوَعْيُ الشّعْبِ يَهديها السّبيلا

الغوري : أجل سقمت سياستنا : فبتنا نُخاصمُ دولةً ونهيجُ أخرى
وتسألُ فيم هذا الجهْلُ منّا فلا تُلْفى له سنداً وعُذرا
فأصبحنا وقد حُشِدتْ علينا عداواتٌ تَاجُّ بنا وتَشْرى
وليس بآمنٍ من بات تطوي له جيرانُه غِلّا وشَرّا

أزبك : أتشكو لي ؟؟

[في استهزاء]

الغوري : ألستَ أميرَ جيشِ الـ ـبلادِ؟

أزبك : ألستَ أنت وزيرَ مصرا

[في مثل نغمته] وهل مولايَ قايتْبايُ يُصغي إليَّ وإن ظَلمْتُ أقولُ شهرا

« ينظر إلى الباب ومداخل البهو في حذر »

الغوري : ولِمْ لا؟

أزبك : فالسياسةُ شأنُ غيري فأنت بنُصحهِ أولى وأحرى

الغوري : لقد ناصحتُ حتى بُحَّ صوتي وحتى ضاق بي عَطَناً وصدْرا
ولا يَرضى الملوكُ النُّصحَ إلاّ من الأذناب ، طُغياناً وكِبْرا
فَرَدُّوا عنهمو من جلّ قدْراً وضمّوا حولَهم من هان قدْرا

يقف أزبك ويتجه إلى الغوري ويربت على كتفه ويقول :

أزبك : أجبْ هل وفدُ أندلسٍ تهدّى إلى الغايات أم أكدى وخابا[1]
وماتَنْوى إذا السلطانُ أصغى لعائشةٍ فأطْلبَ واستجابا
وعائشةٌ لها لَسَنٌ وسحرٌ فتحْسَبُ زيفَ حُجَّتها صوابا

الغوري : صدقتَ فربَّ أقضيةٍ ضِعافٍ أحالتْها مُدعّمةً صلابا
لقدهجمت على السُّلطان تُدلى بدعْوَتِها فيدْفَعُها ويأبى
إلى أن لانَ جانبُه فأمسى يُعَنِّيها الأمانيَّ العِذابا
لئن وفّى لها . فَتَحت علينا من الأرزاء والأحداثِ بابا
سَتلقاهُ هنا . فلقد دُعينا لنَشهدَ . . .

أزبك : بل لكيْ نَحني الرِّقابا

[في حقد]

« يدخل قهرمان القصر »

القهرمان : سُلطانُ مصرَ المعظَّمْ

الغوري : يحيى ويَسنى ويَسْلَمْ

« يدخل السلطان الأشرف قايتباي ووراءه مفتي البلاد »

المشهد الثاني

السلطان إذهبْ لعائشةَ الكريمةَ والتمس منها التفضّلَ بالقُدوم الآنا

[للقهرمان]

« يخرج القهرمان »

[مستمراً] ستجيء عائشةُ لتنظرَ في الذي قطعت له الشُّطآنَ والبُلدانا

(١) تهدى : استرشد .

ولكم ودِدْتُ لو استطاعت مصرُ أن
تَهَبَ الجميلَ وتَقْرِضَ الاحسانا
ما عاقها إلاَّ ممالكُ حولها تَطوى لها الأحقادَ والأضغانا

الفوري : مولاىَ شاكلةُ الصَّواب أصبتَها
[في شيء من الخضوع] لازلتَ بالرَّأى الأسَدِّ مُعانا
إبدأ بنفسك ثم بالرَّهط الذى تَرعاهُ ثمَّ تعهَّدِ الخُلْصانا

أزبك : هذا الحجى والحزمُ !!

السلطان : إن الحزمَ قد يُزْوَرُّ عنه لحكمة أحيانا

مفتي البلاد : مولاىَ فامضِ على سجيَّتك التي تَبنى السَّلامَ وتَهدِمُ العُدوانا
[في ملق واضح] أنعزُّ في مصرٍ ودينُ الله في أنحاءِ أندلُسٍ يُسامُ هَوانا
لايعدَم الإسلامُ مثلَكَ كالئاً يُعلى له ذكراً ويرفعُ شانا
ويردُّ كيدَ عدوّه في نحره ويصد عنه البغْيَ والطُّغيانا

أزبك : تُربدُها شيخَ البلادِ نَصيحةً تَحيا بها أتقى الورى أرْدانا
[في حدة] الدِّينُ بُرهانُ السَّماءِ ونورُها لا تتَّخذْهُ لباطلٍ بُرهانا
ما أهْوَنَ العلماءَ إن دفعوا به رأياً إذا بُهتوا له وبيانا

الفوري : هذا أمير الجيش قال فلم يدعْ لمفكِّرٍ متدبِّرٍ تبيانا
إن السياسةَ في سديد مَدارها لا تعرفُ الحرماتِ والأديانا

مفتي البلاد : أسمعتَ مولانا الذي يُلقى؟!

السلطان : نعم

مفتي البلاد : أفايسَ هذا الكُفرَ والعصيانا ؟

السلطان : لا تَغْلُ مُفْتِينا الجليلَ فدينُنا أسْنى العقولَ وحرَّرَ الأذهانا[1]
ما كان في إشراقِه وسموقِه كالبابويَّةِ يَعرفُ الحِرْمانا
مفتي البلاد : هذا هو الحقُّ الذي لا يُمترى فيه . أضاءَ عقولَنا وهدانا
[متجهاً لأزبك والغوري]
لازلت موحىً بالصَّواب لهومه صوماً يداً وبصيرةً ولسانا

« تغامز من الغوري وأزبك »
« وابتسامة حائرة تلوح على فم السلطان »
« يدخل قهرمان القصر ووراءه عائشة »

المشهد الثالث

القهرمان : مولايَ ها هي أقبلتْ
السلطان :
عائشة : أهلاً بمن لم تُنجب الدُّنيا لها أقرانا
حُيِّيتَ يا ملك الملوك ولم تَزلْ أعلاهمو وأعزَّهم سُلطانا
وبقيتَ للأمم الشَّقيقةِ موئلاً في إدِّها ومُناصِراً معوانا[2]
قد آن أن أمضي إلى وطني وإن كانت ديارُكمو لنا أوطانا
الدِّينُ قُربى والعروبةُ لُحمةٌ ولعلَّ أقوى الآصرات أسانا
تلك الوشائجُ وحَّدت ما بيننا وإن اختلفنا رايةً ومكانا
السلطان : أترينَ أن تَمضي ؟ وكيف ؟ فإننا لم نُهْدَ بعدُ لخُطَّةٍ فتمهَّلي
عائشة : كيف التمهُّلُ والخطوبُ مُغِذَّةٌ فإذا عُنيتَ بجسْمِها فتعجَّلِ ؟[3]

(١) أسنى الشيء : رفعه ووقده . (٢) الاد : الداهية أو الأمر الفظيع .
(٣) مغذه : مسرعة .

أيامُنا معـدودةٌ وبلادنا ... في غمرةٍ مركومةٍ لا تنجلي
شعبٌ يُطاحُ به، فهل من جُنَّة؟؟ ... وحَضارةٌ تَرْدَى فهل من مَعْقِل؟!

السلطان : لبَّيْكِ إنَّا مُسعفوكِ فبيِّني ... كيف السبيلُ ؟

عائشة : ... وددْتُ لو لم تسأل
لاشيء غيرَ الجندِ تبعثُها

السلطان : وهل ... اسطيعُ والأحقادُ حولي تغتلي؟

[في تؤدة] إن لم يُصبْنا «بايزيدُ» تضافرت ... أحلافُه فأصبْنَنا في مَقْتَلِ
الشرق مخذولٌ بفرقة أهله ... ولو اهتَدوْا فتآزروا لم يُخذل
«يسكت قليلاً مفكراً ثم يقول»
لو تسألين العوْنَ من مُرَّاكشٍ ... نَصَرتْ ...

عائشة : ... أكنتَ تظُنُّني لم أسأل
قبلَ الشُّخوصِ إليكَ ألمنابها ... فشهدتُ خُلْفاً كالضِّرام المُشْعَل
ورأيتُها شِيَعاً تبيتُ حقودُهم ... ترمي المضلِّلَ منهمو بمضلِّل
أمراؤُهم صرْعى الجهالةِ والهوى ... والشعبُ بينهمو الرَّمِيُّ المصطلى[1]
فطفقْتُ أدعوهم. وأوقظ عزمَهم ... فكأنما هي صيْحةٌ في مجهل
قلتُ البِدار إليك. إن لم تُنْجنا ... عصفت بنا دُفَعُ الخطوبِ الحُفَّل

السلطان : قَرِّي فإن اللهَ مُلهِمُنا الهُدى ... يا أمَّ عبدالله ...

عائشة : ... لاتذكرْه لي
[في أسف وحنان] ما في سبيلِ ابنى سجيناً عانياً ... أنْحتْ عليه الحادثاتُ بكلكل

(١) الرمي : المرمى راجع المستدرك شرح القاموس .

ومُعَصَّباً بالتاج بات مُعطَّلا ... منه ولولا الأسرُ لم يَتعطَّل
ما في سبيل ابني ولا من أجله ... أدعوكَ للحَدَثِ الجليل المعضِل
لكنَّهُ دينٌ يَزولُ ودولةٌ ... شمَّاءُ تغرُب كالنجوم الأُفَّل

السلطان : ياقائدَ الجيشِ استمعتَ فأفتني

[لأزبك]

أزبك : مولايَ ـ ذلَّ عداكَ ـ لا تتعجَّل
النُّجحُ والإخفاقُ محتملان، والأ ... قدارُ تسبَحُ في سَديمٍ مقفل (١)
فإذا غزوتَ ومصرُ آمنةُ الحمى ... فظهرتَ . أبتَ بجحفلٍ مُتفلِّل
وإذا تكوز هزيمةٌ هُنا كما ... هاز الحبابُ على الإناءِ الممتلي

السلطان : أفذاكَ رأيُك ؟!

أزبك : إنه رأيي الذي ... لم أنصَدِعْ عنه ولم أتحوَّلِ

السلطان : قنصوهُ خذ في الأمر

الغوري : هذا الرأيُ في ... إحكامِه وبلاغه لم يُبقَ لي
هذى نصيحةُ حازمٍ متبصِّرٍ ... حزَّت مضاربُها جماعَ المفصلِ
إن زُلزلَ الاسلامُ في غرناطةٍ ... فلتَرْعَه في مصر لم يتزلزل

عائشة : لم تَستقمْ حُجَجُ الوزير فقد بدت
على مَشْرَفِ السَّدَدِ الأصيلِ بمعْزِلِ
إن تدفعوا معنا العدوَّ بقيتموا ... في مأمنٍ منهم وفي مُتَعزَّلِ
الحزمُ لا الاجمالُ يدعوكم، فلا ... تَزنوا الأمورَ بحيْرةِ المُتأوِّلِ

(١) السديم : الضباب .

السلطان : صَدقْتِ فقد طال التَّشاوُرُ بيننا
وليس كقطْعِ الأمرِ أحجى وأحزما
سنَشهرُها حرباً ضروساً مبيدةً ونبعثُه جيشاً كثيفاً عرمرما
يرُدُّ عن الاسلام كيْدَ عدوِّه ويَحمي حِمى دولاتِه أن تَهدَّما
فهيِّئْ لهذا الزحفِ أزبكُ والتمسْ وسائلَه وانفِرْ على الجيش قَيِّما

أزبك : ولكنْ !!

الغورى : أناةً سيِّدي المَلِكُ إنما ؟؟

السلطان : رأيتُ فكفُّوا عن ولكنْ ، وإنَّما
[في حزم] يُحبُّ الامامُ النَّصحَ والرَّأيَ مُبهَمْ عليه ، ويأباهُ إذا هو صمَّما

الغورى : أيؤذَنُ لى ؟

السلطان : قلْ !

الغورى : قد قطعتَ موفَّقاً
وكنت بعُقبى الأمرِ أدرى وأعلما
وقِدْماً توقعتَ الأمورَ فلم تَخِبْ ظنونُك حتى قد حسِبناكَ مُلْهِما

السلطان : أتَمضي إلى رأيٍ ؟
[في مقاطعة]

الغورى : أجل ربَّ حيلةٍ تجُنِّبُنا الخطْبَ الذى قد تأزَّما

السلطان : وما تلك ؟

الغورى : فابعثْ من ثِقاتِكَ بَعْثَةً
تسوقُ إلى « البابا » الوعيدَ المُضَرَّما

تُلِمُّ به والسُّفْنُ يَمْخُرْنَ مَوْكِباً حوافلَ يَحمِلْنَ الخميسَ العرمرما
تُخوِّفُهُ عُقْبَى الذي يُنزلونه بأندُلُسٍ ، أو يَستبيحَ دمٌ دما
له أُمَّةٌ تحيا وتكدحُ بيننا فكنَّا سواءً شِقوةً وتنعُّما
نَكيلُ لهم مثلَ الذي كال قومُه ويَجني حصيدَ الشرِّ من كان قدَّما

عائشة : أصابَ . وعندي أن يكونَ رسولُكم
له راهباً إن سيل قال فأفحما

السلطان : إذنْ فابْغِني قَسَّيْنِ أعْهَدْ إليهما بأمري . فإن الحزمَ ما قد رأيتما

[للنوري] إذنْ بمصرٍ أنَّ حرباً نخوضها فنحيا كراماً أو نموتَ فنُكرَما

« يتهيأ النوري للخروج فيدخل قهرمان القصر في سرعة »

القهرمان : بالبابِ من غرناطةٍ رجلٌ تبدو عليه مخايلُ النَّصبِ
يرجو المثولَ لديك

السلطان : إبتِ به

« يخرج القهرمان »

عائشة : إرهاصةٌ لكبـــائر النوب[1]

[لنفسها]

« يدخل القهرمان ووراءه محمد بن سراج »

المشهد الرابع

[مستمرة] ماذا الذى قد جئتَ فيه محمدٌ

ابن سراج : في نكبةٍ عَمَمَ ، وخطبٍ داجِ

(١) إرهاصة : أمارة .

عادَ ابنُك الفدْمُ الغوىُّ لملكه

« دهشة تم الجميع وفزع يلوح على عائشة »

لاتغضبي من سَوْرتي وهياجي [1]

عائشة : كيف استطاعَ ؟ وكيف أُطلِقَ ! نبِّئني

ومنِ الأُلى نصروه يابنَ سراجِ ؟!

ابن سراج : قدجاءفي سَطْوِ العدوِّووجندِه ولوائه ونُضاره الوهّاجِ

عائشة : ماذا تقول !؟

[في لوعة]

ابن سراج : الحقُّ ماقلتُ

عائشة : اتئِدْ لودِدْتُ أنك تفترى وتُداجي

ابن سراج : كنّا ذَهبْنا نَفتديه فردَّنا وَغِراً يصول بباطلٍ ولجاجِ [2]

قلنا له : شرّانِ شرٌّ منهما هينٌ ، وآخرُ عزَّ كلَّ علاجِ

قدكان عمُّكَ حين مالَّك جُنَّةً فحماكَ مكلوءٌ وشعبكَ ناج

فمضى على غُلَوائه وضَجاجه يُغريه مَذْقُ أولئك الأعلاج [3]

عائشة : أتممْ حديثَكَ . .

[في هدوء خطير]

ابن سراج : قدعلمتِ فقد غزَوْا غرناطةً في جحفل أمشاج [4]

ينْحَطُّ كالدُّفاع وابنُكِ قيِّمٌ يهفو به ويَئِزُّ كالأمواج

---

(١) الفدم : الأحمق التافه . والسورة : الغضب . (٢) الوغر الواغر : الحاقد .

(٣) المذق : مزج الصداقة بعداوة مستورة . والأعلاج : الافرنج . والضجاج : الباطل. (٤) الأمشاج : الخليط .

فاستبرأ الأمرَ المليكُ وقال: من ... حزم الأمور تخيُّرُ المنهاج (١)
قال اعتزلتُ إذا رددتم جيشكم ... ومضى كريمَ مطارحِ الأوداجِ (٢)

عائشة : والعاهلُ المصْبوبُ فوقكم؟

[في احتقار]

ابن سراج : احتمى ... بالقصرِ ذى الشُرُفاتِ والأبراج
وأقرَّ للافرنج حلْفاً كالذى ... تجدينَ بين الرَّكبِ والأحداج (٣)

[ثم في سخرية] أعوانهُ في الحكم !! أما عونهُ ... لهمو فَضارعُ طاعةٍ وخراج

عائشة : أسفاً عليه بات واهنُ ملْكه ... ينماع فوقَ الزئبقِ الرَّجْراجِ (٤)

« تتخاذل قليلاً ثم تماسك »

[مستمرة] مالى يكادُ اليأس يَغْلبني على ... أمرى...

السلطان : أيأسٌ والقتالُ سجالُ

[مشجعا]

لا تضْعُفي بجليل عِبْئك إنما ... تُلْقَى عَلَى أمثالك الأحمال
ولأنْتِ من قوم إذا انأطر القنا ... بأكفهم شَرَعوا اليقينَ وصالوا (٥)
عودي لقومك فاحكمي نزواتهم ... إن التخشُّعَ للمغير وبال (٦)
وتساندوا تحتَ الخطوب وناضلوا ... فالكرْهُ يحفِزُ، والحياةُ نضالُ

الغورى : مولاى هل نمضى لما أزممته؟ ... أم حالت الأحداثُ والأحوالُ
عاد ابن ضيفتكَ العظيمةِ مُلكَهُ ... فتكشَّفتْ نُوَبٌ وكفَّ قتال

(١) استبرأ الأمر : تدبر فيه وقلبه . (٢) الأوداج : عروق الوجه . والمراد كامل الكرامة . (٣) الأحداج : الجمال وكل ما يركب ، والمراد أنه حلف العبيد للسادة .
(٤) يهتز . (٥) انأطر : تحطم . (٦) التخشع : الخضوع .

أربك : الجيشُ إن ينفرْ فمن أعداؤه؟ والقومُ خفوا للسلامِ ومالوا

عائشة : بل إنها السِّلْمُ التي أعقابُها ال إجهازُ والتشريدُ والإذلال

[في حدة واعتراض]

هو عهدُ مضطرٍّ ومَوْثقُ مكرهِ تملى السيوفُ فتكتبُ الاغلال

السلطان : أختاهُ قد كنَّا نُصاولُ غاصباً لكمو فبات كما تَرَيْنَ صديقا

كيف السَّبيلُ إلى الحشودِ نَسوقها

إن كان وُدُّكمو إليه مَسوقا

عائشة : هل تأخذون بلادنا بجريرةٍ لم تَجنِها . أخطأتمو التَّوفيقا

[في غيظ وثورة] إن خان عاهلُهم فما خانوا ولا شقَّ التّخاذلُ للصُّفوفِ طريقا

شعبٌ تَنزَّى في براثنِ كاسرٍ ضار يُمزِّقُ جسمه تمزيقا

هوجارُكم : فتداركوه مُحرَّقاً ووليُّكم فاستنقذوه غريقا

ما زال يسألكم بحرمة ملَّةٍ قامت وشائجَ بيننا وعُروقا

إلاَّ تُغيثوه مَقوداً للرَّدى فالغوثَ حتى لا يُباعَ رقيقا

أنى يعزُّ الشَّرْقُ . حين بلادُه كالغابِ راعَ به الفريقُ فريقا[1]

فابنباي : هذا الذي نُلقينَ حقٌّ كله فالشَّرقُ دارُ تحاسد وخصام

فإذا حذرتُ ملوكَه وحقودَهم جنَّبت مصرَ أذى المغيرِ الرامى

لو أنَّهم نَهدوا إليك سبَقتُهم في جحفلٍ كضراغم الآجام

إن كان إقدامي مُعينَك فالنُّهى والحزمُ يعتذرانِ عن إحجامى

عائشة : أنظَلُّ ننظرُ للعظائم نظرةً قَبَليَّةَ الإدراكِ والإلمام

(١) أني وكيف بمعنى .

[في اعتراض وتقريع]

نَسْتهدفُ المرْمى الهزيلَ وتجتزى ... بالهضْبِ دونَ بواذخِ الأعلام

تقفونَ والدُّنيا تسيرُ جديدةَ الْـ ... ـآراء والنَّزعاتِ والأحكام

ألقتْ صوالحُكُم على أبصاركم ... وقلوبكم كسَفاً من الإظلام

كلٌّ يقول «أنا» ولوْ قد قُلتمو: ... «نَحْنُ» اتّقيْنا هَيْضةَ الأيّام

تتناحرونَ ممالكاً وطوائفاً ... والشّرقُ بينكمو الجريح الدامي

[ثم في صرخة هادرة]

باسم العروبة والجوارِ دعوْتُكم ... والدِّينِ والحُرمات والأرحام

فصَدَدتمو مُتوجّسينَ كأنما ... أدعوكمو لكبائرِ الآثام

واضيْعَةَ الإسلام إن لم تقهروا ... أهواءكم . واضيْعَةَ الإسلام

ستار

الفصل الخامس

المشهد الأول

قصر غرناطة ـ قاعة السفراء

« وجد تصلح بعض الآنية والوسائد »

« تدخل أمل حزينة »

وجد ردِّى الدموعَ ياأملْ هل تَسمعينَ ياأملْ ؟!
لاتقنَطى من رحمةٍ ربٌّ جراحٍ تَندملْ

أمل : ياوجْدُ ما جدْوى حياةِ النَّاسِ من غيرِ أملْ
ما تنفعُ العينُ إذا النُّـــورُ جفاها فرحلْ
هذا شقيقُ النَّفسِ ياوجدُ تقاضاهُ الأَجلْ
مضى كما يَمضي ندى الفجرِ إذا الصُّبحُ انهملْ
وزال في رَيْقِ الصِّبا كقبلةٍ لم تكتملْ[1]

وجد : لقـــــد قضى يدفعُ عن أوطانِهِ وينفَحُ
[مشجعة] من مات دون عِرضه ففي الخلودِ يُضرحُ
أخي علمتِ لم تزلْ جراحُـه تَقرَّحُ
قد باتَ للعيْشِ وللكـــــدِّ به لا يَصلحُ

أمل : أىُّ جهادٍ ذاك ياوجـــــد وماذا ينفـعُ ؟
هو السَّرابُ يَخدعُ هو المُـنى تَقشَّعُ
هذا الحِصارُ حولنا أحسبُـه لا يُرفـع

(١) ريق الصبا : أوله .

جحافلٌ حوافلٌ أحسبُه لا يُرفعُ
وأمّةٌ مُغيرةٌ وصَعَداتٌ شُرَّعُ (١)
ونحن تحتَ الرُّزءِ لا فمزمُها مُجَمَّعُ
نُقدِمُ ثم نَقبَعُ ونُنتَحي فنَخشعُ
ما أتفهَ الساسةَ والخطبُ مُلِمٌّ مُضلِعُ ؟
تواكلوا فاثّاقلوا وخطبوا فجَعْجَعوا

وجد : لكنَّ هذا الشَّعبَ عن أهدافه لا ينزِعُ (٢)

جاعوا فما تخاذلوا كلا ولا تصدَّعوا
سلاحُهم فُلَّ فما ريعوا ولا تضعضعوا
وكم ثناهم مُرجفٌ فسمِعوا ولم يَعوا

أمل : سينكُصون في غَدٍ فجُهدُهم مُضيَّعُ

وجد : أسوارُنا منيعةٌ تَثني العدا وتَدفعُ

أمل : وددْتُ لو سورُ القلوبِ واليقينِ أمنعُ

« تدخل بثينة »

المشهد الثاني

بثينة : هل جاء ؟

وجد : من ذاكَ ؟

بثينة : أبو القاسِم

« إشارة من وجد تفيد أنه لم يحضر »

(١) جمع صعدة : وهي الرمح . (٢) لاينزع : لايكف .

أمل : أسمع همساً خُطا قادمِ[1]

« تتجه أمل إلى أحد الابواب »

[مستمرة] ليس الذي يَقدِم غيرَ الفتى فتى النَّدى والرمحِ والصارمِ

« يدخل محمد بن سراج »

« وتخرج الفتاتان »

بثينة : أين الوزيرُ ؟ فقد أفضى لعائشة رسولُه . أنه آتٍ ليلقاها

[متجهة إليه] يقول أنَّ خطيراً سوف يحمله لها يَمَسُّ أموراً خاف عُقباها

ابن سراج : أظنُّه لن يجيءَ الآنَ . إنَّ له خُطةً لم تَغِبْ عن طواياها

يُفشي وأعوانُه في أمةٍ وهنت هزيعةً تتنزّى في حناياها

إن العدوَّ ليُكدي أن يطيح بها إن لم يُسلِّطْ عليها كيدُ أبناها

وأين عائشةُ ؟!

بثينة : عند ابنها ذهبت تذود عنه الأسى واليأس والجزعا

ابن سراج : هل تَرفعينَ لها أنّي ألِمُّ بها فربَّ شرٍّ تَدارَكْناهُ فاندفعا

بثينة : أمكثْ سأبلِغُها

[وهي تتهيأ للخروج]

ابن سراج هل أنت ماضيةٌ ؟؟ بُثينُ

بثينة : أسمعتَ من لبّى ومن سمعا

ابن سراج : أتستجيبينَ في نأيٍ وكم صَرختْ

نفسي فلم تُلْفِ في سمعيكِ مُتّسعا ؟!

---

(١) الهمس : الصوت الخفي عامة وصوت وطىء الأقدام خاصة .

أثابَكِ اللهُ ، إنّى ذُقتُ فيكِ هوىً
أضْنى عليَّ — وما عُوِّدْتُه — الضَّرَعا
إذا فقدتُكِ ذابت مُهجتي قطَعاً وإنْ لَقيتُكِ رفَّ القلبُ فانصدعا[1]
لا تُسلميني إلى يأسٍ يُبرِّحُ بى ولا رجاءٍ . فقد جارا علىَّ معا
هذا يُحيلُ الدُّنا جرداءَ موحشةً وذاكَ إنْ جئتُهُ هيمانَ ما نقَعا[2]
لا تَسألي عن جَفاكِ العَذْبِ ما صَنَعا
وسائليني : أأرْدَى الصَّبْرُ أم نَفعا

بثينة : محمدٌ لا تُناهضني بمُحتدمٍ
من الأحاسيسِ ، تَرجو اوَصْلَ ما انْقطعا
ألم تَعِدْني أن تَضطرَّ قلبكَ أن
يَنْسى . فما للجوى المشوب قد رجَعا
رُحماكَ لا تَتغَشَّاني بعاطفةٍ كالسَّيلِ مُندفعاً والوَقْدِ مندلعا
حزمتُ أمري . وأعلاقي تُراجعُني
وقلتُ : ياقلبُ حكمَ الفضْلِ . فارْتدَعا

ابن سراج : الفضلُ ؟؟ ما الفضلُ إلاَّ الحبُّ رفَّ على
الدُّنيا فشعشع في ظلمائها اللُّمعا
ما أبدعَ اللهُ من شيءٍ فقدَّسَهُ
كالحبِّ والعهدِ في قلبٍ إذا اجتمعا

بثينة : أدرى . ولكنَّ حُبِّي قد غَوى وهَوى

(١) رف : اهتم واضطرب . (٢) الهيمان : العطشان أشد العطش .

[في كمد] والحبُّ تَلْتَذُّهُ نفسى إذا ارتفعا

ابن سراج : وكيف يابثنُ ؟؟

بثينة : دعْ هذا الحديثَ فقدْ
أجدَّ بي النَّاهكَيْنِ الخزْىَ والهَلَعا
فأنتَ تَذكرُ أنِّى قد كذبْتُ على
يَحيى . وقلتُ له أهواكَ فانخدَعا

[في هياج] كانت نجاتُكمُو أمرا ركبتُ لهُ الـ أهوالَ والكرْهَ حتى كان ما وقعا
وبتُّ حيرى فإن لم أشْفِ غُلتَهُ قُتِّلْتُمُو فتداعى الملكُ وانصدعا
بَذَلْتُ أكرمَ ما أقنى وأقدسَه
وُقْتُ كالرَّوْضِ دِيسَ الروضُ وانتُجِعا

ابن سراج : ماذا تقولين ؟ !

[في فزع]

بثينة : هذا العبءُ نُؤْتُ به واليومَ آنَ لهذا العبءِ أن يَقعا

ابن سراج : ويْكِ انحدرت إلى إثمٍ وفاحشةٍ في غيرِ ما علَّةٍ تدعو ولا سَدَدِ

[في ثورة] وما دفاعُكِ حيناً لا اندفاعَ له إن فاتنا أمسِ غشَّانا صباحُ غَدِ
قد كان هذا الرَّدى هيْناً عليَّ إذا
أنْحى . وأنتِ طهورُ الروحِ والجسَدِ

بثينة : قلْ كيف شئْتَ فلى عذْرٌ أُراوِحُ له كالجُرْحِ أن يُعْتَلَجْ بالنارِ يبترِدِ (١)

[في هدوء خطير] إذا هويْتُمْ هوتْ أركانُ أندلسٍ وهانَ عِرضي إذا يُفدى به بلدي

(١) أرواح : ارتاح . يعتلج : يعالج .

« تسرع خارجة من المسرح » .
« فيخف لها ابن سراج ، ويمسك بها » .

ابن سراج : بثينُ مهلًا . فعندي ما أسِرُّ به إليكِ ...

بثينة : قل ياشقيَّ الحظِّ واقتصد

ابن سراج لئن حملتُ على نفسي وآزرَني قلبي عليها فلم تجْنَحْ إلى لَدَدِ (١)

[في تهدم]

وقلتُ ماضٍ نواريه ونَستُره

بالصفْح عنه . أأملامن رضاكِ يدي؟

إنَّا تُلِمُّ بنـا الجُلى فإن دهمت

وأنت زوجي ، لقيتُ الموتَ في رَغَدِ

بثينة : يا أقربَ الناسِ من قلبي وأبعدهم ومن تفرَّد . لم نُشرِكْ به . كبدي

[في حزن] اللهُ جارُك . لاتهدفْ إلى أملٍ ما إنْ إليه سبيلٌ آخرَ الأبد

إني حُطامٌ ترى ظلَّ الحياةِ به فإن تلَمَّستَ فيه الروحَ لم تَجِدِ

ابن سراج : إنِّي لأصفحُ !!

بثينة : هذا الصَّفحُ منك وإنْ تَقْبِسْهُ من بَسَماتِ الله لم يُفِدِ

[في يأس] هل كان إلاَّ صدى ضَعْفٍ خذلْتَ له

ذلاَّنَ تضرب مَبْهوراً يداً بيَدِ (٢)

ما كان مُجدِيَ إلا الصفحُ تبذُله

نفسي . فما أشتفي بالصفحِ من أحد

---

(١) اللدد : الخصومة . (٢) خذىً وخذاً واستخذى بمعنى . والذلان : الذليل المغلوب على أمره . والمبهور : المنقطع النفس .

هذا الضميرُ إذا أمْسَيْتُ أرقّني
وإن غَدَوْتُ فيا وَيْلي ويا كَبَدي[1]
لو كنتُ أعلمُ في جسمي مواقعَه نزعْتُه ثمَّ قد مزّقته بيدي
بيني وبيْنَك ما امتدّ البقاءُ بنا هذا الضميرُ. فردُّ النفسَ وابتعد

« تدخل عائشة »

المشهد الثالث

عائشة : ماذا أرى أخصامُ؟

[في تدليل]

ابن سراج : بل إنّهُ . لانفصامُ
على حياتي وحبّي وذكْرَياتي السّلامُ
رفّت فعزّت فزالت كأنها أحلامُ

عائشة هوّنْ عليكَ وصابرْ سُحْبُ الدّسائسِ جَهامُ
[باسمة] إباؤُهنّ رضاءٌ وحربُهنّ سلامُ
ودمْعُهنّ رياءٌ وسُخطُهنّ كلامُ

« ثم تشير إلى بثينة »

دعي الذي تدّعيه فإنّهُ أوْهامُ
قد أطلعْتني عليه فقلت سُخْفٌ عُقامُ
إذا انثنى الكرْهُ عنا وصافت الأيّامُ
جمعتُ قيْساً وليلى فشملُكم مُلتامُ

(١) الكبد : الشقاء .

ابن سراج : فديتك نفسي عديني أقرّ نفساً وعيْنا
[لبثينة] أفنيتُ فيك شبابي مُنىً وجَهْداً وأيْنا[1]
مُنّي عليّ بُثينا

« تشيح عنه بوجهها »

هل تسمعين بثينا

بثينة : محمدٌ إن كرّها يَهدُنا اليومَ هدّا
أنحى علينا حقوداً مُضرّماتٍ وجُندا
حتى لنُمسي ونُضحى نُرمى فنُحصَدحصْدا
ماذا ؟ أنجوى غرامٍ ومُلكُنا يتردّى !
بذلتُ كنزي لتُوقي هذى البلادُ وتُفدى
خُذْ في الجهاد وغالبْ وجِدّاً طواك وجَهْدا
تفرّع الأفْقَ مجداً أوخُطّ في الأرض لحدا
هذا الخلودُ . وهذا هوًى عَناك فكدّا
أيُّ السبيلَيْنِ أبقى أيُّ السبيلَيْن أهدى

ابن سراج : بُثَينُ هذا سموقٌ عرفتُه فيك قدْما
لكنّه اليومَ أسنى مما عهدْتُ وأسمى
سأركبُ الهولَ إمّا عِشْنا كراماً . وإمّا
ستَحْمدَين بلائي إذا الغُبارُ ادْلهَمّا
فهل سبيلٌ لبُقيا إذا سَلِمْنا ونُعمى

(١) الأين : النصب .

بثينة : إذا هلكنا كلانا فأنت في الخلد زوجُ

[في دلالة ورضا] وإن نجونا نظرنا في أمرنا يوم ننجو

عائشة : ألمْ أقلْ لكَ إنَّ النساء يَضْعُفنَ فارْجُ

يارُبَّ ليلٍ تراءتْ فيه المُنى حين يدجُو

« تخرج »

« ثم تأخذ عائشة بيد ابن سراج ، وتقول في قوة وحزم : »

عائشة : ما الحالُ يا ابن سراجِ

ابن سراج : أظنُّها شرَّ حالِ

الشعبُ قد ضاق ذرعاً بهـذه الأهوالِ

مُحاصَرٌ من يَمينٍ مُرَوَّعٌ من شمال

هوى به الجوعُ روحاً

عائشة : هذا نذيرُ الوَبال

ابن سراج : لا تيأسي إنَّ فيه خلائقَ الأبطالِ

لولا خيانةُ رهطٍ منه شديدِ المحال (١)

شَنُّوا عليه ضُروبَ الارجاف والأوجال

لآثروا الموتَ قَعْصا تحت الظُّبا والعوالي

عائشة : بل قلْ خيانةُ ملكٍ دكَّته كالزلزال

قلها . فمن قال حقاً دَوَّى به لم يُبالِ

قد كان رائدَ جُبْنٍ وخِسَّةٍ وانخذالِ

(١) المحال : القوة والكيد .

أغرى هوانَ وزيرِ وشَبَّ إسفافَ وال
فجرَّعوا الناسَ كأس الهوانِ والإذلال
إنْ تَفْسُدِ الرأسُ دَبَّ الفسادُ في الأوصالِ

«يدخل الملك ومعه شيخ القضاة وأبو القاسم الوزير ورؤساء العشائر».

المشهد الرابع

أبو عبد الله : أمّاهُ . مَشْيَخَةُ البلادِ تجمَّعوا ... ليروْكِ فاستمعي لهم ثمَّ اقطعي
إني سمعتُ حديثَهم ووعيْتهُ ... فأمضّني ووَددْت أنّي لم أع
شيخَ القضاةِ ابدأ فأنت كبيرهم

شيخ القضاة : ... مولاي إني قد بَتَتُّكَ ما معي

عائشة : هلّا نفضْتَ إليّ رأيَك؟؟

شيخ القضاة : إنّهُ ... رأيُ الجماعةِ يا أميرةُ فاسمعي
لا بدّ من صُلحٍ مع الإفرنج أو ... نَرْدَى

عائشة : ... أصلحُ السّاجدينَ الرُّكع!

شيخ القضاة : سمِّيه كيفَ أردت إنّ الخطبَ لن ... تَقْوى عليه بعزمنا المُتَصدِّعِ
إستوهبي حِلْفاً فإنْ ضنُّوا به ... وقعَ القضاءُ فما له من مدْفع

ابن سراج : الحِلْفُ في هذا الإطارِ سيادةٌ ... الحقُّ يُطْمَسُ، والعهودُ زِيافُ
الأمرُ للأقوى يُوولُه كما ... شاءت له الأطماعُ والأهدافُ

عائشة : كيف السبيلُ إلى الذي ترجوه من ... حِلفٍ ونحن مطوَّقون ضِعافُ
جرَّبتموهم أمسِ أحلافاً فهل ... حفظت لكم ميثاقَها الأحلاف

أبو عبد الله : أمّاه لا يُجدي العنادُ . فإنه سيلٌ طغى دُفَّاعُه القَذَّافُ
لو نستطيعُ دفاعَه لم نأْلُهُ جَهداً ولكنَّ الجهودَ عِجافُ
لا تُهلكي بجموحِ رأيك أمّةً تأبى الرويّةُ ذاك والإنصاف
[ثم يلتفت للجميع] قولوا أنهلكُ أم نثوبُ إلى الحجا فتردُّ في أقرابها الأسيافُ

« في اثناء كلام أبي عبد الله يتنقل الوزير أبو القاسم بين رؤساء العشائر يحادثهم ويحرضهم »

أبو القاسم : تعاليْتِ سيِّدتي فأذني أُحدِّثكِ عن خطبنا الداهم
عائشة : تكلَّم فأنتَ وزيرُ البلادِ وناصحُ عاهلِها القائم

[في سخرية]

أبو القاسم : لعلَّكِ قدّرْتِ ما نابنا
عائشة : وما نابنا يا أبا القاسمِ ؟

[في ازدراء]

ابو القاسم : حصارٌ يطوِّقُنا كالسِّوارِ إذا ما استدار على مِعْصَمِ
وجوعٌ يُمزِّقُنا نابُه وحمّى من القلقِ المُبْهِمِ
وشعبٌ رماهُ انتصارُ الفرنجِ بيأسٍ جرى فيه مجرى الدَّمِ
وجيشٌ تخاذلَ حتى اضمحلَّ فإلّا نُغيثوه يستسلمِ
عائشة : أيستسلمُ الجيش ؟؟ ماذا تقول ؟
أبو القاسم : يهونُ الهوانُ على المُرغمِ
عائشة : فتلك نهايتُنا لا مفرّ
ابو القاسم : أنهربُ من قدرٍ مُبْرَمِ ؟

عائشة : وماذا ترى؟؟

[في ضيق]

أبو القاسم : سائلي الكابرين رؤوسَ عشائرنا تعلمي

عائشة : لعلَّك تعرفُ ما أجمعوا عليه . فبيِّن ولا تكتمي

أبو القاسم : يقولون : دكَّ قُوانا المدوُّ فإن لم نسالمْه لم نَسْلَمِ

وقالوا : الشجاعةُ إن لم تُفِدْ فضربٌ من الحُمْق والمأثمِ

وقالوا الحجى في اتِّقاءِ الأذى إذا ما استطار فلم يُحسَمِ

عائشة : رويداً فقد سُقتَ فِقْهَ الخشوعِ وفاسفةَ الجُبْنِ فيما أرى

[في حدة] أذلك رأيهمُو أم تُراكَ نصحتَ به في غواشي الدُّجى

أبو القاسم : أجدَّكِ مولاتنا ما نصحتُ ولكن رويْتُ حديثاً جرى (١)

على أنني مُكبرٌ رأيهم فقد واكبَ الحزمُ فيه النُّهى

وإنَّهمو لُهداةُ البلادِ وقادتُها ووجوهُ الملا

عائشة : أقادةُ أندلسٍ هؤلاء وهم مَنْ سقَوها كؤوسَ الرَّدى!

[في ازدراء صريح]

أسيتُ لها مَرْتعاً للذِّئاب وكانت مراتعَ أُسْدِ الشَّرى

فيا أمةً دبَّ فيها الفسادُ وطمَّ بأقطابها واغتلى

فما سادها عاهلٌ فارعوى ولا ساسها حاكمٌ فاستحى

وما أتْقنت غير فنِّ النِّفاق غذته وروَّته حتى رَبى

فكان لساستِهم عُدةً لِدَرْءِ الأذى ، وبلوغِ المُنى

(١) أجدك : تؤدي في بعض استعمالاتها معنى وحقك .

إذا رفَّ نجمٌ فخدَّامه وأحنقُ أعدائه إن هوى
وأسبقُ قوم لأخصامه لئامُ العَشيِّ لئامُ الضُّحى
عَلوتم بإسفافكم في الهوان فسُحقاً لكم يا عبيدَ العصا

« يدخل الأمير على العطار في شيء من الاضطراب »

المشهد الخامس

على العطار مولاىَ أبلغني العدوُّ رسالةَ
أبو عبد الله ماتلك ؟
على العطار : أخشى أن تكونَ نذيرا
طلبوا الخبرِ هو المثولَ لديكَ في
أمرٍ . فجئتُ به إليك سفيراً
أبو عبد الله : أدخلوا الخبر وامنحوه من التكر
يم ماتمنحون شيخاً جليلا

« يسرع أبو القاسم لتلبية الأمر »

كان بَرْداً عليّ في وَحشةِ الأسر
ورفهاً وكان ظِلاً ظليلا
عائشة : إنما كان لاعباً بك كالشيطان
[في حقد] يَسقيكَ كيدَه المسمُولا
ثم سلَّ الغداة منك على الدَّولة
سيفاً . ولم يَزَلْ مَسلولا

« يدخل أبو القاسم ومعه الحبر كارلو »
« يتبعه القائد كابرا وضابطان اسبانيان »
« يهرع أبو عبد الله لملاقاته »

أبو عبد الله : أهلا بأكرم وافدٍ

الحبر : حُيِّيتَ يا

مولايَ يكلؤك الكريمُ القادرُ

أبو عبد الله : أكبرتُ ما أوليتنى من نعمة

سَعِدَ الأسيرُ بها فجلّ الآسرُ

وشكرتُ فضلَك والزمانُ تَؤودني

أثقالهُ . إن الكريمَ لشاكر

الحبر : مولايَ حسبُك . ليس ما أسلفتهُ

بيدٍ تُشيد بفضلِها وتجاهرُ

هى - إن نَشدتُ الحقَّ - حقٌ مُسَوَّدٍ

في قومه عَنَـــاهُ دهرٌ جائرُ

« ثم يلتفت لعائشة ، ويقول في احترام »

حُيِّيتِ مولاتى فإني عاقـــني

عن أن أُحيّيكَ الحديثُ الدائرُ

عائشة : سهلاً نزلتَ . وبعدُ هل أنبأتنا

أمُنْذِرٌ طالعتنـــا أم زائرُ ؟

الحبر : هي بَيْنَ بَيْنَ !! وإنها لسفارةٌ

[في ارتباك يسير] شقّت عليّ وللسفيرَ مَعاذرُ

[ثم يقول في حزم وتهديد]

مَلقا فتحناها وبَسطةُ أُخضعتْ

فغدت معاقلُهـــا وهنَّ حفائرُ

لا تَطرحون الطَّرْفَ الا راعَكم

منا قَنًا وضـــــوامرٌ وبواترُ

فالأرضُ بالجيشِ المغيرِ حفيلةٌ

والبحرُ بالسُّفُنِ العدوَّةِ زاخرُ

إن العدوَّ وراءَكم وأمامكم

فتدبَّروا في أمرِكم وتذاكروا

« اضطراب وتهامس وفزع »

أبو عبد الله : ملقا ؟ أتمنى أنها دانت لكم ؟؟

[في فرح مستور]

الخبر : هو ما أقول !

أبو عبد الله : وأين عمّي الغادرُ ؟

[في تشف]

عائشة : أقصرْ . أحقدٌ حين قومُك حُطِّموا

حَطْمَ الزجاجُ . وحين مُلكك دائرُ

أإذا تقوَّضت العروشُ عليكما

حسدَ الذَّليلَ على الهوانِ الصَّاغرُ

لولا اصطراعُكما لأُوْرَق عودُنا

لكنَّهن مصـــايرٌ ومقادرُ

الخبر : مولاى أنت ترى فجيشُكَ مُثْخَنٌ

[لأبي عبدالله] وبلادُك انصدعتْ، وشعبُك خائرُ

فانْزِلْ على حُكْمِ الرَّوِيةِ والحجَى

يحْقَنْ دمٌ ويُرَدَّ رزءٌ جازِرُ (١)

« مظاهر موافقة من الموجودين جميعاً »

« عدا محمد بن سراج وعلى العطار »

عائشة : ياقوم إن الموتَ حتمٌ فلنَمُتْ

[للموافقين] شُهَداءَ يَحْصِدُنا الرَّدى فيُفاخرُ

وليَمضِ منا للسَّماءِ مُرابطٌ

ومجاهدٌ مُسْتَشهدٌ ومُصابِر

عِشْنا طلائعَ للورى فعلومُنا

وفنونُنا شِرَعٌ لهم ومصادرُ (٢)

عَرَفُوا بأعيُنِنا الحياةَ فليتهم

يَرَوُنَ كيف يموتُ شعبٌ كابرُ

شُدوا . فإن تثاقلوا أو تَنكصوا

حمل اللواءَ كرائمٌ وحرائرُ

« تسمع ضجة في الخارج »

« ويدخل موسى بن الغسان ومعه رجل ملثم يظهر فيما بعد »

« أنه الزغل »

---

(١) الجازر : القاطع .

(٢) شرع : جمع شرعة وهي مورد الماء .

عائشة : ذاك موسى !

[في لهفة]

موسى : أجلْ

عائشة : أزايلتَ مَلْقا ؟

موسى : ليْتني قد لَقيتُ فيها حِمامي

طالما قد دعوته فتأبى

وعَدني إلى رفاقي الكرام

إنَّ ملْقا ! !

عائشة : علمتُ ما لَقِيَتْهُ

من صباحٍ ضَنْفٍ وليلٍ دامِ

نبئي هل هَوَتْ كما تُنصَبُ الأغيالُ

أم أُرغمتْ على استسلام

موسى بل هوت والرماحُ يُشرَعْنَ والا

أسيافُ يَلمعن في غواشي القَتام

والمجاهيدُ من بينها يَحبُّون

إلى الموت ثُبَّتَ الأقدام[1]

يتبارَوْن للشَّهادةِ بالكرِّ

دراكاً والشدِّ والإقدام

(١) المجاهيد : جمع مجهود ، وهو الذي أضناه الجهد .

قاتلوا الجوعَ والضنى وعدوَّ اللهِ
حتى دُعُوا لدارِ المُقَامِ
ثم قال العدوُّ حِلفٌ كريم
فارتضيْناهُ والقلوبُ دوام
فإذا الحلْفُ نَفْثةُ الحاقدِ الموتورِ
تُكْوى بها جِباهُ الكرام
كان أدنى منه إلى مَرْتبات الفضْل
فَتْكُ الذُّئابِ بالأنعام

« ثم يلتفت إلى الحبر في تجهم »

ما الذي جِئتَ فيه يا حَبْرُ

الحبر : صُلحٌ
مُطفئٌ جَذوةَ اللظى المشبوب
بين مِثْلين كابِرَيْن فلا غالبَ
يلوي بضارعٍ مغلوبِ
قد أَمَلَّتْهُ فِكْرَةٌ رَحْبةُ الأُفقِ
وجالت به يد التَّهْذيبِ
من مواثيقه الأمانُ على الـ
ـأرواحِ والمال واتِّقاءُ الحروب
واحترامُ الأديانِ — والدينُ حُبٌّ —
كلُّ حبٍّ يجري على أُسلوبِ

وضمـانٌ للرَّاحلينَ وأَمْنٌ
للمُقيمين في حِماكَ الرَّحيبِ

« يسكت هنيهة ثم في تبسيط وتهوين » .

شَرْطُ هذا أن يترُكَ المِلكُ المُلْكَ
كريماً في مَشْهَدٍ ومَغيبِ
ثم تجلونَ عن معاقِل غرناطة
في موعدٍ وشيكٍ قريب
ثم أنتم لنـا وليٌّ وجارٌ
بين عَدْلٍ هامٍ ورِفْهٍ سَكوب
هذه فاعلموا رسالةُ مولايَ
إليـكم في عهده المكتُوب

« يتسلم الرسالة من كابرا ويقدمها في إجلال لأبي عبد الله »

موسى : فإذا لم ترُق لنا ؟!

[في تحد وسخرية]

الحبر : فمزيدٌ

[في نفس النبرة] من كروبٍ تجتاحُكم وخطوب

« يتهيأ للانصراف »

آن لي أن أعودَ فالتَمسوا لرأيَ
بهدْيِ التَّقْليب والتجريبِ

« ثم يقول في نبرة خطيرة مشيراً لعلم على سارية القصر » :

إن أجزْتُم ، فأنزلوا العلَمَ الخفاقَ
والشمسُ تَنثنى للغُروبِ
وابعثوا كابراً لتوقيعِ هذا العهدِ
عنكم في الموعدِ المضروبِ
في يديْهِ المِفْتاحُ . مِفتَاحُ غرناطة
والقصرِ ذى الحمى المطْنُوبِ[1]
[ثم في تهديد] الغروبُ الميقاتُ . لا تتعدَّوْه
وإلاَّ فالوَيلُ للمغلُوبِ
« يتجه للانصراف فيرفع الزغل لثامه ويستوقفه »
« دهشة تعم الحاضرين وتهامس » .
الزغل : هلْ تريَّثْتَ أيها الحبرُ
ابوعبدالله : هذا أنت !!
[في دهشة وحقدوفزع] كيف اجترأتَ أن تلقاني
الزغل : الأناةَ أسقطْ دَعاوَى الحبرِ
ثمَّ اسألْني يرُعْكَ بياني
« ثم يوجه الخطاب للحبر في حدة وازدراء »
لو وَفَيْتُم بعهدِكم يوم مَلْقا
واصطنعتُم خلائقَ الإنسان
لكفَفْنَا بعضَ الحذارِ وقلنا
رُبَّ عهدٍ سمْح ورُبَّ ضمان

(١) المطنوب : المنيع .

غير أنَّ الذى اجترحتم من الآثامِ
فيها البَغيَ والعُدوانِ
باغتصابِ الأبكارِ كالذؤبانِ
وبقتل النِّساءِ والصِّبيانِ
واعتداءً عَلىَ المساجدِ بالتَّحقيرِ
تُزجونه لهـــــا والهوان
بعضُ هذا يُضفي عليكم سنا الفضْل
وصدقَ العُهودِ والأيْمان

الحبر : ياأخا العُرْبِ ليس من كرم الاخلاق
[في هدوء] لومٌ يُلقى بـــلا بُرهانِ
لستُ أدرى من أنتَ !؟

الزغل : صاحبُ مَلْقاَ !!

الحبر : أبلادٌ يسوسُها مَلِكَانِ ؟!

[في خبث وإثارة]

موسى : أنت مُكدٍ إن رُمْتَ أن توقظَ الشرَّ
وتُذكي لواَفـــحَ الشنآنِ
قد أصبتَ الذي أردتَ من التَّفريقِ
والمُلْكُ فارِعُ السُّلطانِ

إنا اليومَ نَدفعُ الهون بالرَّاح
ونحمى بقيةَ من كيانِ[1]
قد بلوْنا. فعهدُكم توأمُ البَغْى
وصِنْوُ الفُسُوق والبُهتانِ
ماعقدتم إلاَّ وأضمرتمو النَّقْضَ
فكنتمْ خوالجَ الشَّيطانِ
مابهذا غزتْ رسالةُ عيسى
-وهي نورٌ- غياهبَ الأزمانِ
وأفاضَ الانجيل من جَنَبات العرْش
يَهدى للفضلِ والاحسانِ
الحبر : هل فرَغْتُم؟ إنى لأغمِضُ طَرْفي
[في هدوء] صافحاً عن فُجاءَةِ الغضبانِ
[ثم في إنذار] قد جعلنا الغروبَ فصْلاً فإمَّا
بَرْدُ ودّ، أونارُ حرْبٍ عوانِ
قد يكون الاذعانُ أيْدَ قوىٍّ
مُقدمٍ، والخِطارُ ضَعْفَ جبانِ[2]
موسى : بلْ عوانٌ نخوضُها أيها الحبرُ
[في حدة] فنحمى حفيظةَ الأوطانِ

(١) الراح : جمع راحة ، وهى الكف . (٢) الأيد: القوة. الخطار التهور .

في زحوف يقودها الملك تنصب
عليكم في الله كالطوفان

الحبر : في زحوف يقودها الملك !! هذا الملك ؟

[في تحدودهشة] ماذا تسوق من هذيان
قل له أيها المليك وذكره
بعهد قطعته وضمان

عائشة : أي عهد ؟

[في فزع]

الحبر : عهد النزول عن الملك لفرناند عاهل الأسبان
يوم سقنا له الجيوش كما رام فرادا كموا بها غير وان[1]
« ثم يقول في تهديد وقسوة »
اخضعوا تأمنوا الردى وتفرقوا
من مصير الإماء والعبدان
« يخرج الحبر وكابرا ومن معهما »
« ويلحق بهم أبو القاسم »

عائشة : أفحق هذا الذي قال ؟

[لعبد الله في حدة]

موسى : هل عاهدت

[ثائراً]

عبد الله : عهد المضيم عهد العاني[2]

[في استخذاء]

(١) رادى : ساور .
(٢) المضيم : الذليل . والعاني الأسير .

عائشة : كم تمنّيتُ لو هَوَتْ تُهمةُ الحبْر
وكانت ضرباً من البُهتان
يا لَذُلّي بين النساءِ وعاري
بين أهْلِ العروشِ والتيجان

أبو القاسم : كان ما كان لن تردّيه فامْضي
[لعائشة] واقطعي الأمر فالتّواني وَبيُّ
ما أوانُ العتابِ هذا ونحنُ اليومَ
يـنْزو بنا العدوُّ الضَريُّ[1]

عائشة : ما يرى قادةُ البلادِ ؟؟
[كالمغلوبة على أمرها]

أبو عبد الله : وهل يختلف
الرأيُ والسّـدادُ جَليُّ
ليْس غيرَ الإذْعانِ للباطش الجبّارِ
هذا هو الطريقُ السّويُّ
قَدّرَ اللهُ أن أشيعَ مُلْـكاً
غَمرَ الكونَ نورُهُ العبقريُّ
تحت عيْني هوى ، لقد لعَنَ النّاصرُ
عهدي . والفاتحُ الأمويُّ

---

(١) ينزو : يثب .

لو تولينُـهُ وبَيْتي وَفِيُّ
مجمعٌ أمرَه وشعبي وليُّ
لاتقينا نهايةَ دفعَ الخلفُ
إليها . والخلفُ داءٌ دويُّ

« يدخل أبو القاسم أثناء كلام أبي عبد الله »

الزغل : أيُّها المَلْكُ هل تُعرِّضُ بالناسِ
وأنتَ المـلومُ والمسْئولُ
لو تداركتَني بملْقا فلم يحبسْكَ
حقدٌ دَوٍ وغلٌّ دخيلُ
لظَهرنا على العـدوِّ فأمسى
وهوَ عَصْفٌ مُضَرَّسٌ مأكولُ
ومنعْنا غرناطةً بعـد ملْقا
فتولّتْ عنا الخطوبُ النُّزول

موسى : أيُّها المَلْكُ قد تداعتْ فدالتْ
دولةُ المسْلمينَ فهي فُلولُ
يوم ساورتَها بجيشِ عدوِّ الله
ترمي عن قوسِه وتَصُولُ
إنَّ من صال بالعدوِّ عدوٌّ
ومن اعتزَّ بالدخيلِ ذليلُ

وإذا المَلْكُ وَاثِبَ الشعبَ فاللهُ
كفيلٌ بِسَحْقِه ووكيل

عائشة : أجدالٌ والنَّارُ تعصفُ بالدار
فأينَ النُّهى وأين العُقولُ ؟!
لا تقولوا هذا الفضولَ فإن أعْملتُمُ
الرأيَ في الخلاصِ فقولوا[1]

شيخ القضاة : الخلاصُ التسليمُ !!

أبو القاسم : هذا هو الرأيُ
فإن فاتنا فرعىً وبيل
اقبلوا الصلحَ . إنَّما الصلحُ خيرٌ
هل سوى الصلح للنَّجاة سبيلُ ؟

موسى : أيها القومُ ما الذي قد عراكمُ

أبو القاسم : إنه الجَهْدُ والعناء الطويلُ

عائشة : أيُّهذا الوزيرُ وِزْرُكَ لن يَنفكَّ
يَرويه للقبيـــلِ قبيـــلُ
تَقذفُ اليأسَ في القلوبِ فيُثْنى
عن مداهُ مُستضْعَفٌ ومَلولُ
[ثم في غمز] أفحرصٌ هذا عَلى المالِ والوُلْد
أم الأمرُ فيه قالٌ وقيلُ

(١) فضول المال : مالا يقسم لتفاهته .

أمْ تَقَرَّيتَ في مليكك ضَعْفاً

وخُنوعاً فمِلْتَ حيثُ يميلُ[1]

أبو القاسم : قلتِ أمُّ المليكِ قالٌ وقيلُ

[في هدوء] أعنيتِ الذي تقولينَ حقّا

أإذا قامَ ناصحٌ قلَّبَ الرَّأيَ

فأدلى به صريحـــاً وألقى

وأصابَ المحزَّ في غيرِ ما ترجونَ

أوْسعتُموهُ غمْـزاً ورشْقاً

مامُرَوٍّ في الأمرِ يجلوه سَبْراً

فيلَقّى من الهُدَى ما يُلَقّى

كالمُغِذِّ المُنْبَتِّ لا الظَّهرَ أبقى

غيرَ مُستبْصِرٍ ولا النَّبلَ شقّا[2]

فاستعينوا الحصاةَ . نسلمْ فقد ضلَّ

نصيحٌ يُشقي سواه ويَشقى

موسى : يا أبا القاسمِ انحدرْتَ لرأيٍ

لا أراهُ إلاَّ وَبالاً وحُمْقاً

ابن سراج : الرَّدى لن يَفوتَنا وإن استأخرَ

[في حدة] فلْنَمضِ كابرينَ لنبـــقى

(١) تقرى : تتبع وتلمس . (٢) المغذ : المسرع . والمنبت : الأهوج .

ماغَناء الحياة نُصْبح عانينَ
ونمسى في حمأة الذُّل غرْقى

موسى إنْ جَنحْنا للصُّلْح أبْسَنا الصُّلْحُ
هَوانًا . وسامنا الدهرُ رِقّا
فالجهادَ الجهادَ ، أو عرَقَتْنا
عُصَبٌ من فواقِر الدّهر عرْقا[1]

شيخ القضاة [لأبي عبدالله]: ليس هذا الجهادُ حقًّا على المَنْهوكِ
جوعًا وعِلّةً وانقساما
إن دَرأنا اليأسَ اللُّهامَ فهل نستطيعُ
أن نَدْرأ الخميسَ اللُّهاما
فاقِضِ في الأمر مُؤثِرًا سَنَنَ الحقّ
ولا تخشَ مُرْجِفًا لوّاما
مُرْ أبا القاسمِ الذي خَبرَ الافرنج
كهْلاً ويافعًا وغُلاما
مُرْهُ يُنبئْهمو بأنّا قبلنا الصُّلحَ
والعهدَ منهمو والذّماما

أبو عبدالله: ذاكَ عَيْنُ الصّواب لا تَقطعُوا اليومَ
نِقاشًا فجًّا ورأيًا عُقاما

---

(١) عرقه الخطب : أخذ منه واشتد عليه . والفواقر : جمع فاقرة ، وهي النائبة .

شبح الفضاة : إيهِ مولاىَ شارَفَ الموعدُ المضروبُ
فاقطعْ فقد أطالوا الكلاما

أبو القاسم : قادةُ الشَّعبِ نحنُ !!

موسى : لاتَذكُروا الشَّعبَ
فقد مالَ في يَدَيْكم قِواما
قد فَرَطتمُ عليه ضيْماً فلمَّا
أَلِفَ الضَّيمَ سُقْتُموه سَواما
وهَويتمْ بِعزمِه وجعلتمْ
هَمَّكم أن ينامَ عنكم فناما
واصْطفتكمُ ملوكُهُ وُزراءً
فَحُقِرتمُ فكنتمو خُدَّاما
وَلبِستُمْ ثوْبَ الجبابرِ قَبْلَ الحُكْمِ
ثمَّ امَّسختُموا أقْذاما
وَوَطأتمْ لهم مَوالجَ للبَغْى
فزادوا بَغْياً ، وزِدتمُ أثاما
وَفرشتمُ لهم جِبَاهَ عَبيدٍ
فأجالوا خِلالهَا الأقداما
إن طَغَوْا مُفسدين في الارض كنتمْ
وحدَكم مَن أحلَّ هذا الحراما

[ثم يلتفت لأنصاره]

اتبعوني ياقوم نستصرخ الشعب
ونبعث فيه طماح القدامى
وتعالوا نوفض لى حرم الموت
أباة على الدنايا عظاما
لن ينال الافرنج منا بحمد الله
إلا جماجما وعظاما
إن عجزنا عن اقتحام نطاق القوم
جزنا إلى الخلود اقتحاما

« يخرج موسى والزغل ومحمد بن سراج والأمير على العطار »

« يسرع أبو القاسم لأبي عبد الله »

أبو القاسم : إمنع الشيخ قائد الجيش أن يخرج
للجيش أو أضعنا الزماما

أبو عبد الله : ياعلى استمع إلى

« يتردد العطار فى الوقوف ثم يقف »

[مستمراً في تكريم] تقدم

« يخطو له العطار خطوات »

على العطار : مر أخض بالزحوف موتا زؤاما
كنت أدرى أن سوف تقدم هذا الجيش
للروع معلما مقداما

أبو عبد الله : ما الذى أنت قائل ! إنني اخترت
لقومي سلامة وسلاما

علي العطار : إن للجيش رأيه لا تسمه
[في اعتراض] عنه في مصيره واحتكاما

عائشة : ربما آثر الجهاد ليلقى الله
لا ناكلاً ولا محجاما

أبو عبد الله هو جيشي ألست مولاه !!

علي العطار : كلا
[في تحد] ليس مولاه من سقاه السماما
واجتنبي الفاسقين فيه الأذلين
ونحي أبطاله الأعلاما

أبو عبد الله : أمروقا وقد عقدتم لي العهد
[في حدة] ووكدتمو لي الأقساما

علي العطار قد فعلنا إذ كنت للجيش والشعب
[في صرخة واعتداد] منار الهدى تضيء الظلاما
أنت بدلت في العهود وغيرت
فأنت الذي نقضت الذماما

« يخرج الأمير على العطار »
« يتهالك أبو عبد الله على مقعد في نظرات حائرة وخطوات مضطربة »
« يحدق في الأفق من ناحية العلم المرفوع . ثم في أبي القاسم ورؤساء العشائر .
« يسمع صوت قاريء من مسجد بعيد يتلو هذه الآية »
« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » .

« يخفي أبو عبد الله وجهه بيديه ويقول في صوت راعش متهدم »

أبو عبد الله : أتُراني قد اجتهدتُ فأخطأتُ ؟؟

أبو القاسم : أليسَ القضاءُ حتماً لِزاما

[كمن يحاول أن يقنعه]

أبو عبد الله أُشهدُ اللهَ أنني قد نشدتُ الخيرَ

[باكياً] ما استطعتُ ... فاخفضوا الأعلاما

عائشة : تذكرُ الله باكياً ؟؟ هل يَردُّ الدمعُ

[في صرخة وألم] مجداً ثوى وعاراً أقاما

هدَّني فوقَ خطْبنا أنك ابني

يا لأمٍّ تُسْقى العذابَ تُؤاما

لم تَصُنْ كالرِّجالِ مُلْكاً فأمْسى

رُكنهُ اندكَّ فابكهِ كالأيامى

ستار

الختام

المراجع العربية

الاحاطة في أخبار غرناطة ..... لابن الخطيب

اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية ..... » »

كتاب العبر ..... لابن خلدون

نفح الطيب ..... للمقرى

السلوك في دول الملوك ..... للمقريزي

بدائع الزهور ..... لابن أياس

نهاية الأندلس ..... لمحمد عبد الله عنان

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ... » » » »

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ... للامير شكيب أرسلان

المراجع الأفرنجية

LANE POOLE : The Moors in Spain.

W. PRESCOTT : History of Ferdinand and Isabella the Catholic.

LEVY - PROVENÇAL : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle.

DOZY : Histoire des Musulmans b'Espagne jusqu'à la Conquète des Almoravides.

HENRY S. WILLIAMS : The Historians History of the world.

NICHOLSON B. ADAMS : The Heritage of Spain.

Library of

Princeton University.

Princeton University Library
32101 073829747